

مجلة البيان - العدد ١٦ ، جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ / فبراير ١٩٨٩ م

الافتتاحية

إلى أين يتجه التعليم...؟

إن مشكلة التعليم من القضايا التي تحتاج إلى مراجعة مستمرة ، وتتبع أهميتها من الحاجة الملحة للعلم بمفهومه الواسع الشامل لبناء المجتمعات الحديثة ، وإن الرواد في كل مجتمع هم رجال التربية والتعليم، فهم القادة الحقيقيون، بعيداً عن مظاهر البروز والادعاء ، وهم الذين يقع عليهم العباء الأكبر في توجيه الأجيال وتسويتها بالأهداف الصحيحة، والوسائل الفعالة ، وأي نجاح للمجتمع ينبغي أن يرجع في النهاية إليهم ، كما أن أي إخفاق في مسيرة هذا المجتمع فمرده إلى قيادتهم ، وإلى الخطأ في الأسس التي اختبروا بمقتضاهـ.

نظرة عجلـى :

لو أقينا نظرة سريعة على الأربعين عاماً الماضية من أجل تقويم الحركة العلمية والتعليمية في أوطنـا ؛ فسوف نعثر على جانبين ، لكل منهما أنصاره وحججه ، أما سبب التحديد بهذه المدة فلأن هذه المدة هي التي أعقبت خروج الأجانب الناصبيـن من بلادنا على وجه التقرـيب ، وأصبحـنا مـالـكـين زـامـاًـنـاـنـاـ ، ونـقـرـرـ مـصـائـرـنـاـ بـعـدـاـ عنـ الـوـصـاـيـاـ - وإنـ كـانـتـ هـذـهـ النـقـطـةـ مـجـالـ جـدـ طـوـيلـ لـيـسـ مـكـانـهـ .

وأربعون عاماً فـترةـ كـافـيةـ وـلاـ بـأـسـ فـيـهـاـ فـيـ حـسابـ الـأـرـبـاحـ وـالـخـسـائـرـ لـأـمـةـ مـنـ الـأـمـمـ ، أوـ لـمـجـتمـعـ مـنـ الـمـجـتمـعـاتـ .

الجانب التفاؤلي :

لقد خـرـجـ المستـعـمـرـ الـأـجـنبـيـ وـجـمـيعـ أـفـرـادـ الـأـمـةـ يـحـدـوـهـمـ الـأـمـلـ ، وـتـمـلـؤـهـمـ الـحـمـاسـةـ لـبـنـاءـ الـمـسـتـقـبـلـ ، وـكـانـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـتـلـافـواـ التـقـسـيرـ الـذـيـ رـزـحـتـ تـحـتـهـ أـمـتـهـمـ قـرـونـ طـوـيـلـةـ ، وـأـنـ يـنـتـشـلـوـهـاـ مـاـ صـارـتـ إـلـيـهـ مـنـ التـخـلـفـ وـالـتـبـعـيـةـ الـمـفـرـوـضـةـ الـتـيـ تـضـافـرـتـ عـلـىـ فـرـضـهـاـ عـوـاـمـ دـاخـلـيـةـ وـخـارـجـيـةـ ، وـلـمـ يـكـنـ مـنـ حـلـ غـيرـ الـعـلـمـ ، كـمـاـ وـنـوـعـاـ .

إنـ العـدـلـ يـقـضـيـنـاـ أـنـ نـفـرـحـ وـنـبـتـهـجـ عـنـ مـقـارـنـتـنـاـ لـحـالـنـاـ الـآنـ بـحـالـنـاـ عـشـيـةـ خـرـوجـ الـاستـعـمـارـ فـإنـ نـسـبةـ الـمـتـعـلـمـينـ إـلـيـ مـجـمـوعـ السـكـانـ قـدـ اـرـتـفـعـتـ اـرـتـفـاعـاـ مـطـرـداـ ، وـلـاـ تـزـالـ فـيـ اـرـتـفـاعـ ، وـقـدـ تـضـاعـفـتـ إـلـيـ جـانـبـ ذـلـكـ عـدـدـ الـمـدـارـسـ عـشـرـاتـ الـمـرـاتـ ، وـإـنـ مـاـ يـحـسـبـ لـهـذـهـ الـفـتـرـةـ هـوـ إـلـزـامـيـ الـتـعـلـيمـ الـابـتدـائـيـ فـيـ أـغـلـبـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ ، وـبـعـدـ أـنـ كـانـ الـتـعـلـيمـ الـجـامـعـيـ وـقـفـاـ عـلـىـ الـفـنـاتـ الـمـيـسـورـةـ وـالـغـنـيـةـ صـارـ كـذـلـكـ حـقـاـ لـلـفـنـاتـ الـفـقـيرـةـ ، وـاقـتـمـ الـمـتـعـلـمـونـ مـنـ هـذـهـ الـفـنـاتـ مـاـ كـانـ مـقـصـورـاـ عـلـىـ غـيرـهـ ، وـتـبـوـءـوـاـ مـكـنـةـ كـانـتـ بـعـيـدةـ الـمـنـالـ ، فـأـصـبـحـتـ مـمـكـنـةـ بـفـضـلـ الـتـعـلـيمـ .

وـيـمـكـنـ تـلـخـيـصـ الـجـوانـبـ الـحـسـنـةـ فـيـ مـسـيـرـةـ الـتـعـلـيمـ ، وـالـتـيـ يـنـظـرـ إـلـيـهـاـ الـمـتـفـأـلـوـنـ بـمـاـ يـلـيـ :
أـصـبـحـ الـتـعـلـيمـ ضـرـورـةـ اـجـتمـاعـيـةـ بـعـدـ أـنـ كـانـ تـرـفـاـ وـمـيـزـةـ لـفـئـةـ مـعـيـنةـ .

تحـولـ الـمـجـتمـعـ كـلـهـ إـلـيـ مـهـمـ بـالـتـعـلـيمـ ، وـمـشـارـكـ فـيـ إـنجـازـاتـهـ وـدـفـعـ نـهـضـتـهـ .

بـفـضـلـ الـتـعـلـيمـ اـرـتـفـعـ الـمـسـتـوىـ الـاجـتمـاعـيـ لـفـنـاتـ وـطـبـقـاتـ فـيـ الـمـجـتمـعـ كـانـتـ تـعـيشـ مـعـيـشـةـ هـامـشـيـةـ .
أـزـالـ الـتـعـلـيمـ كـثـيرـاـ مـنـ الـفـوارـقـ وـالـأـمـرـاـضـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـجـعـ بـالـسـوـءـ عـلـىـ بـنـيـةـ الـمـجـتمـعـ .
جـعـلـ جـمـيعـ أـفـرـادـ الـأـمـةـ يـشـعـرـونـ بـذـواتـهـمـ ، وـيـقـدـرـوـنـ إـمـكـانـاتـهـمـ وـحـقـيقـتـهـمـ فـيـ الـوـجـودـ ، وـعـزـزـ الثـقـةـ الـجـمـاعـيـةـ بـالـنـفـسـ .

هذه أمثلة للجوانب الإيجابية للنهاية التعليمية يمكن أن يضاف إليها كثير من النقاط الأخرى.

الجانب التشاوخي :

على الرغم من الاعتراف بكل مزايا الفترة الماضية فيما يتعلق بالإنجازات التعليمية على المستوى الفردي والعام ؛ إلا أنه يبقى الكثير الذي لا بد من أن يطرح ، ومن ذلك .

لقد كان الاعتقاد أن تتمحى الأممية من المجتمعات العربية ولكن هذا لم يحدث .

والأمر الطبيعي أن تكون البدايات بسيطة ومتواضعة ، ثم تقوى وتتشدد ، ولكن المشاهد أن نوعية التعليم قبل أربعين سنة كانت أفضل مما هي عليه الآن - وهذه قضية لا يختلف عليها أحد - صحيح أن تقدماً حصل من الناحية العددية ، ولكنه تقدم سطحي ، وتمدد أفقى على حساب العمق والجودة . ومن السلبيات التي انحطت بالتعليم النظرة الخاطئة إليه ، واعتباره وسيلة لرفع المستوى المادي ، دون اعتباره غاية قائمة بنفسها .

إذا أحب أحد أن يناقش التعليم على مستوى العالم العربي فإنه يلحظ شيئاً من التفاوت الذي أدى إلى خلل وعيوب في البناء التعليمي ، وبينما نجد بلاداً كانت فيها النهاية التعليمية أسبق منها في غيرها ؛ نجد أن هذه البلاد السابقة قد هبط مستوى التعليم فيها لأنها أصبحت معنية بسد النقص وال الحاجة عند غيرها من جهة ، وكذلك فإن الحالة المادية أصبحت تتحكم بالمستوى التعليمي ، فنظرأً للضائقـة المالية التي تعيشها هذه الدول فقد أصبح تخريج الخريجين عندها استثماراً (وهذا من حيث المبدأ لا غبار عليه ولا مانع منه بشرط مراعاة جودة الإنتاج) وترتب على ذلك أن انصرف المعنيون إلى تكثير عدد المتخريجين لتعطية الطلب في السوق ، وكان ذلك على حساب النوعية المؤهلة تأهيلاً كافياً .

اهتزاز قيمة المعلم الاجتماعية ، وتقديره تقويمًا مادياً فقط ، وبينما ارتفع المستوى المادي بتسارع شديد لكثير من أصحاب المهن والحرف اليدوية التي لا تتطلب إعداداً علمياً أو تتقنيـاً ، وأصبح هؤلاء ذوي امتيازات مادية لا تذكر ولا تحجب ؛ ظل المستوى المادي للمعلم متخلقاً ، والتحسينات التي تزاد عليه تحيـو حبـاً بالمقارنة مع ارتفاع مستويات المعيشـة والغـلاء التي تضرـب المجتمعـات عـامة ، ومجتمعـتنا العـربية بـصورة خـاصة .

وأصبحت مهنة التعليم من المهن المحترفة في المجتمع ، وهذه حقيقة لا يمكن أن تناـكر ، على الرغم من كل ما يقال من كلام إنساني في مناسبات تكريم المعلم ، بل إن هذا المدح غير العملي ، والإشادة الباردة بالمعلم ودوره في المجتمع ليست إلا من قبيل معالجة خلل موجود في النـظرة العامة السائـدة تجاه مهنة التعليم ، ولو سـألت مـعلم أو مـدرس سـؤالاً بـسيطـاً: هل يـحب لـولـده أـن يـمـتهـن مـهـنةـ الـتـعـلـيمـ فـي مـسـتـقـبلـ حـيـاتهـ؟ لـكانـ الجـوابـ بـالـقـطـعـ: لاـ.

إن لهذا دلالة يجب أن يقف المرء عندها ، وأن يحلـلـها تـحلـيلاً يـقـفـهـ علىـ أـسـبابـهاـ وـدوـافـعـهاـ وـنـتـائـجـهاـ. وـعـنـدـماـ يـشـعـرـ المـعـلـمـ أـنـهـ أـصـبـحـ مـهـانـاـ لـاـ مـنـ قـبـلـ الأـغـنـيـاءـ وـالـمـيسـورـيـنـ الـذـيـ جـلـبـ كـيـ يـعـلـمـ أـوـلـادـهـ فـحـسـبـ! بـلـ مـنـ قـبـلـ فـئـاتـ أـخـرىـ مـتـخـلـفـةـ عـلـمـاـ وـفـكـرـاـ عـنـهـ ، وـلـهـ نـفـسـ مـنـبـتـهـ ، وـمـنـدرـةـ مـنـ مـسـتـوـيـ اـجـتمـاعـيـ قـرـيبـ مـنـ مـسـتـوـاـهـ؛ عـنـدـماـ يـعـيـشـ المـعـلـمـ هـذـاـ الشـعـورـ، فـهـلـ يـلـامـ عـلـىـ قـلـةـ إـلـاـصـهـ وـمـوـتـ طـمـوـحـهـ نـحـوـ تـقـدـيمـ الـأـفـضـلـ؟!

هذه لمحـاتـ حولـ قضـيـةـ هـبـوـطـ المـسـتـوـيـ التـعـلـيمـيـ فـيـ مـدارـسـنـاـ، وـتـظـلـ هـذـهـ القـضـيـةـ طـوـيـلةـ وـمـتـشـعـبةـ وـبـحـاجـةـ إـلـىـ بـحـثـ وـتـحـلـيلـ، وـحـسـبـنـاـ أـنـنـاـ أـشـرـنـاـ إـشـارـةـ إـلـىـ ذـلـكـ، وـأـنـنـاـ فـتـحـنـاـ الـبـابـ لـلـقـرـاءـ الـكـرـامـ لـتـنـاوـلـ هـذـهـ المـسـأـلـةـ المـهـمـةـ بـالـتـفـصـيلـ وـالـتـعـلـيقـ.

وإننا نرحب بالمساهمة في ذلك على صفحات مجلة "البيان" ، على أن تكون المعالجة عامة لا تخص بلداً دون بلد ، ولا تتناول من الظواهر إلا ماله تعلق بالضعف العام الذي انحدر إليه المستوى التعليمي ، وأسباب ذلك ، ونسبة ارتباط كل منها بالمناهج ، أو الخطط التعليمية، أو خطط إعداد المعلمين .
وعلى الله قصد السبيل ..

مجددون معاصرن رد على اعتراض

اتصل بنا عدد من الأخوة الأفاضل و قالوا ماذا تقولون عن بعض هؤلاء العلماء المعاصرین الذين نعتموهم بالتجديـد؟ ... ألا ترون أنـهم من مدارس مختلـفة لا يـجمعها جـامـع ، ولا يـربط بينـها رـابـط؟ ... هل تـريـدون إـرضـاء النـاسـ كلـهـمـ معـ أنـ إـرضـائـهـمـ غـايـةـ لاـ تـدرـكـ ؟! غـفرـ اللـهـ لـهـؤـلـاءـ الـأـخـوـةـ الـكـرـامـ ! المشـكـلةـ أـنـهـمـ مـنـ طـلـابـ الـعـلـمـ ، وـ طـلـابـ الـعـلـمـ يـحـتـرـمـ آرـاءـ الـآخـرـينـ ، وـ لـاـ يـتـسـرـعـ فـيـ إـصـارـ الـأـحـكـامـ أوـ التـهـمـ.

وكما وعدنا القراء ، سوف نمضي في الحديث عن كوكبة من العلماء المعاصرين الذين نفع الله بهم ، وسنذكر الجوانب التجديـدةـ لـكـلـ عـلـمـ مـنـ الـأـعـلـامـ ، وـ فـيـ الـحـلـقـةـ الـأـخـيـرـةـ نـجـيـبـ عـلـىـ أـسـئـلـةـ الـذـيـنـ اـتـصـلـوـاـ بـنـاـ وـ الـذـيـنـ لـمـ يـتـصـلـوـاـ بـنـاـ ، وـ نـوـضـحـ اـنـسـجـامـ مـاـ نـكـتـبـهـ مـعـ الـمـنـهـجـ الـذـيـ التـزـمـنـاـ بـهـ فـيـ بـدـاـيـةـ هـذـاـ الـبـحـثـ . وـ مـنـ حـقـنـاـ عـلـىـ إـخـوـانـنـاـ أـنـ يـقـرـأـوـاـ مـاـ نـكـتـبـهـ بـإـمـاعـنـ وـ تـجـرـدـ !! فـإـنـ وـافـقـوـنـاـ فـخـيرـ وـبـرـكـةـ ، وـ إـنـ خـالـفـوـنـاـ فـالـمـسـأـلـةـ مـنـ الـمـسـائـلـ الـتـيـ يـجـوزـ فـيـهـ الـخـلـافـ ، نـسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـرـزـقـنـاـ وـ إـخـوـانـنـاـ الصـبـرـ وـ التـجـرـدـ ، إـنـهـ سـمـيعـ مـجـيبـ .

حسن الـبـنـاـ

لن نتحدث حديثاً تقليدياً عن ولادة حسن الـبـنـاـ رـحـمـهـ اللـهـ . وـ سـيـرـةـ حـيـاتـهـ ، فـالـرـجـلـ لـيـسـ مـجـهـولاـ ، وـ هـنـاكـ عـشـرـاتـ الـكـتـبـ الـتـيـ كـتـبـتـ عـنـهـ ، نـاهـيـكـ عـنـ كـتـبـهـ الـتـيـ لـاـ تـكـادـ تـخـلـوـ مـنـهاـ مـكـتـبـةـ ، وـ سـوـفـ نـقـصـ الـمـوـضـوـعـ إـلـىـ دـرـوـسـ ، مـحاـوـلـيـنـ الـاـخـتـصـارـ قـدـرـ الـاـسـطـعـاءـ :

الدرس الأول :

ولـدـ حـسـنـ الـبـنـاـ رـحـمـهـ اللـهـ . عـامـ ١٩٠٦ـ ، وـأـسـسـ جـمـاعـةـ إـلـخـوـانـ الـمـسـلـمـيـنـ عـامـ ١٩٢٨ـ ، وـ قـتـلـهـ أـعـدـاءـ اللـهـ عـامـ ١٩٤٩ـ ، وـ هـكـذـاـ تـكـوـنـ سـنـيـ عمرـهـ عـنـدـمـاـ أـسـسـ حـرـكـةـ إـلـخـوـانـ ٢٢ـ عـامـاـ وـعـنـدـمـاـ تـوـفـاهـ اللـهـ ٤٣ـ عـامـاـ . وـ كـانـ خـلـالـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ حـدـيـثـ النـاسـ فـيـ مـصـرـ كـلـهـاـ ، وـ فـيـ الـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ ، بـلـ وـفـيـ الـعـالـمـ كـلـهـ . وـ لـمـ يـكـنـ رـحـمـهـ اللـهـ . مـتـقـرـغاـ لـلـعـلـمـ إـلـسـلـامـيـ ، فـلـقـدـ كـانـ مـدـرـساـ مـعـظـمـ النـهـارـ ، وـ كـانـ رـبـ أـسـرـةـ يـنـفـقـ عـلـيـهـاـ ، وـ يـرـعـيـ شـؤـونـهـاـ ، وـ كـانـ مـؤـسـسـ جـمـاعـةـ إـلـسـلـامـيـةـ كـبـيرـةـ تـتـنـشـرـ شـعـبـهـاـ وـمـرـاـكـزـهـاـ فـيـ جـمـيعـ أـرـجـاءـ مـصـرـ .

إـذـاـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ سـيـرـةـ الـبـنـاـ وـهـوـ طـالـبـ صـغـيرـ فـيـ أـوـاـلـ الـمـرـحـلـةـ الـإـعـدـادـيـةـ نـجـدـ أـنـفـسـنـاـ أـمـامـ طـالـبـ يـخـتـلـفـ عـنـ غـيـرـهـ مـنـ طـلـبـةـ عـصـرـهـ ، بـلـ وـمـنـ طـلـبـةـ هـذـاـ الـعـصـرـ ... هـاـ هـوـ يـتـحـدـثـ عـنـ نـفـسـهـ فـيـقـولـ بـأـنـهـ يـقـسـمـ وـقـتـهـ "بـيـنـ الـدـرـسـ نـهـارـاـ" ، وـ تـعـلـمـ صـنـاعـةـ السـاعـاتـ الـتـيـ أـغـرـمـ بـهـاـ بـعـدـ الـانـصـرافـ مـنـ الـمـدـرـسـةـ إـلـىـ صـلـاـةـ الـعـشـاءـ ، وـ يـسـتـذـكـرـ الـدـرـوـسـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ النـوـمـ ، وـ يـحـفـظـ حـصـتـهـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ بـعـدـ صـلـاـةـ الصـبـحـ حـتـىـ يـذـهـبـ إـلـىـ الـمـدـرـسـةـ" . [مـذـكـرـاتـ الدـعـوـةـ وـ الدـاعـيـةـ ١٢ـ /ـ] .

ننتقل من الحديث عن البناء وهو طالب في الإعدادية إلى الحديث عنه وهو قائد جماعة: يخطط لها يربى جمهور شبابها... يحاضر هنا وهناك.. يؤسس الصحف والمجلات ويدبرها.. وهو إلى جانب هذا وذلك مدرس في مدارس الدولة ، وفي العطلة الصيفية هل كان يستجム مع عائلته في قرية هادئة ليس فيها صخب ولا ضوضاء؟!.. هل كان يغادر مصر للسياحة والمتعمدة المشروعة؟! إن حياة المجدد لا تعرف إثمار العافية والراحة ، لاسيما وهو يشعر بأن لأهل الأرياف والمناطق النائية حقاً عليه وعلى إخوانه ، فرحلة من رحلاته بدأت في ١١ ربيع الثاني وانتهت في ٩ جمادى الأولى من عام ١٣٥٢ زار خلالها : أبو صوير شرقية ، الإسماعيلية ، السويس ، بور سعيد ، الدقهلية بفروعها ، طنطا ، شبراخيت ، المحمودية [بحيرة] ، دمنهور [بحيرة] ، شلنوج [قليوبية]. [١١٥٤].

ويقول أحد مرافقيه:

"كان يقطع الوجه القبلي كله بدأً بدأً ، وقرية قرية في عشرين يوماً ، في بعض الأحيان يصبح في بنى سويف ، ويتجدد في ببا ، ويمسي في الواسطي ، ويبت في الفيوم... وهكذا كان ينام ساعة أو بعض ساعة ، وفي الوقت الذي يضع فيه رأسه على الوسادة ينام ونحن نتحدث من حوله". [الإخوان المسلمون والمجتمع المصري /١٤].

أليس في حياة هذا الرجل درس للكسالى الذين يقتلهم الفراغ ومع ذلك يتحدثون عن ضيق الوقت؟! أو ليس في حياة هذا الداعية المجدد عبرة للذين يتباكون على واقع المسلمين اليوم ، ولا يقدمون للعمل الإسلامي إلا فضلات أوقاتهم ، فالوظائف تستهلك معظم أوقاتهم ، والزوجة تستهلك بقية الوقت وهي لا تفت أرضاً تردد "خيركم خيركم لأهله" والمسكين يخلط بين فهم خاطئ للحديث وبين طاعة امرأة لا يرضيها في كثير من الحالات إلا أن تستحوذ عليه وتحول بينه وبين الناس الطيبين ، وبينه وبين الدعوة والجهاد في سبيل الله.

أرأيتم كيف يبارك الله بأوقات العلماء المخلصين ، فأولاد حسن البناء فيما كتبوه قالوا: لقد بذل جهداً في تربيتنا ، وكان يجلس معنا ويداعينا ، وشقيق البناء قال فيما كتبه: لقد كان أستاذي وأخي. ولم ينس فضله عليه في تربيته وإعداده ، وما يجر ذكره أن حسن البناء كان النجل الأكبر لأبيه الشيخ عبد الرحمن البناء الشهير بالساعاتي.

الدرس الثاني :

اتصل حسن البناء -رحمه الله- بعلماء عصره وسمع منهم وناقشهم ، وكان يعرّف بفضله فيما كتبه من مذكرات.

وعندما أعلن الطاغية أتاتورك عن هدم الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ ، كان عمر البناء ١٨ سنة وكان في أوج عطائه ، يتحدثون عن هذه المصيبة التي رزق بها الإسلام والمسلمون ، ويتدرون لعقد مؤتمرات وندوات - كعادتهم - يطالبون فيها بعودة الخلافة... وكان رشيد رضا في مجده - المنار - ينادي بالجماعة والعمل الجماعي ، وأنه لا سبيل إلى مواجهة أعداء الإسلام إلا بوجود جماعة... ومع ذلك بقيت أفكار رشيد رضا نظرية ، ولم ينجح أو بالأحرى لم يسع إلى تأسيس هذه الجماعة.

ومن جهة أخرى فقد رافق هدم الخلافة انتشار الفساد والنشاط الصليبي الهدام في مصر... أشار البناء -رحمه الله- في مواضع مختلفة في مذكراته إلى هذه الآفات) انظر إلى ما كتبه تحت عنوان: موجة الإلحاد والإباحية في مصر ، ص ٤٩ ، وما كتبه عن التبشير ، ص ١٤٧ من مذكراته).

فكان الشيخ حسن البنا رحمة الله - كالليث الجريح لا يهداً ولا يستقر... يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويتصل بالعلماء ويكتب إلى المسؤولين... أنظر إلى لقائه مع الشيخ يوسف الدجوبي [علم من أعلام الصوفية وخصم من كبار خصوم الدعوة السلفية] ، تحدث - رحمة الله - عن هذا اللقاء بأدب ولكنه أوضح مقصده ، فصور لنا أن الشيخ كان يائساً : "وانتهى ذلك كله إلى أنه لا فائدة من كل الجهد ... وأوصاني ؟؟ أن أعمل بقدر الاستطاعة ، وأدّع النتائج لله ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها".

ويصور لنا مشهداً آخر في هذه المقابلة يوم أن قدم الشيخ محمد سعد حلويات رمضان ، وتعمد البنا أن يجلس إلى جانب الشيخ الدجوبي ، وأخذ الدجوبي حلوى وقدمها إلى البنا ليأكلها فرفض الأخيرتناولها وقال. " لو كانت رغبتي بهذه النقل وأمثاله لاستطعت أنأشترى بقرش وأظل في منزلٍ ولا أتكلف مشقة زيارتكم" وانطلق يتحدث عن الفساد والإلحاد وواجب العلماء.

وإذا كان الشيخ الكبير الدجوبي يائساً فالمجدد لا ييأس ولا يتراجع.. أنظر إليه يقول : "لم يعجبني طبعاً هذا القول".... وأمام إصرار البنا أمر الدجوبي برفع الحلوى دون أن يتناولوا منها شيئاً ، واتفقوا على عقد اجتماع يضم نخبة من العلماء ، وتم ذلك ، وأسفرت هذه اللقاءات عن ظهور مجلة الفتح التي كان يرأس تحريرها محب الدين الخطيب . [المذكرات/ ١٥١].

كانت أجواء ومجالس أمثال هذا الشيخ لا تسمح لشاب صغير أن يخاطب الشيخ بهذا الأسلوب . قال البنا : "وكنت أتكلم في حماسة وتأثر وشدة ، من قلب محترق مكلوم ، فأنبرى بعض العلماء الجالسين يرد علي في قسوة كذلك ، ويتهمني بأنني أسأت إلى الشيخ وخطبته بما لا يليق ، وأسأت إلى العلماء والأزهر ، وأسأت بذلك إلى الإسلام القوي العزيز ، والإسلام لا يضعف أبداً والله تكفل بنصره" [المذكرات/ ٥٢].

وكان- رحمة الله - يعلم أن هذه الجهود ستبقى ضعيفة جزئية لأسباب لا تغيب عن ذهن المعنى مثله ، وليس هذا الذي يتطلع إليه المجددون ، إذن لابد من عمل جماعي شامل... وعرف البنا العمل الجماعي مذ كان طالباً في الإعدادية ، فلقد كان رئيس إدارة "جمعية الأخلاق الأدبية" وكان لهذه الجمعية نظام داخلي... ثم أسس بعد حين "جمعية منع المحرمات" وكان مع زملائه يرسلون رسائل للعصاة والمقصررين يأمرونهم فيها بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً.

وانصب إلى الطريقة الحصافية ، وكان عمره أربعة عشر عاما ، وبابع شيخ الطريقة وأسس مع أحمد السكري "جمعية الحصافية الخيرية" ، وكانت مهمتها نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ومقاومة المنكرات ، ثم تخلى عن الطريقة والجمعية عندما أدرك أن حاجة المسلمين أكبر من ذلك بكثير.

وفي القاهرة - وكان عمره ستة عشر عاما - انتسب إلى "جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية" ، وإلى "جمعية الشبان المسلمين". قال - رحمة الله - : "وأذكر أني كتبت توأً إلى عبد الحميد بك سعيد معلناً اشتراكـي بالجمعية ، وواظـبت على دفع الاشتراك...".

وكان الدافع إلى انتسابـه إلى هذهـ الجمعـيات كلـها رغـبـتهـ في الإصلاحـ ، وشعـورـهـ بأـهمـيـةـ العملـ فيـ جـمـاعـةـ ، ولـعـلـ هـذـهـ جـمـاعـاتـ كـانـتـ تـنـنـاسـبـ معـ وـعيـهـ فيـ تـالـكـ المـرـحـلـةـ غـيرـ أـنـهـ يـكـتـشـفـ بـعـدـ قـلـيلـ أـنـ دورـهـ جـزـئـيـ مـحـدـودـ ، وـإـذـ لـابـدـ مـنـ جـمـاعـةـ تـنـسـمـ بـالـشـمـولـيـةـ، وـلـهـذـاـ أـسـسـ جـمـاعـةـ الإـخـوـانـ المـسـلـمـينـ عـامـ ١٩٢٨ـ ، وـحدـدـ فـقـراتـ هـذـاـ المـنـهـاجـ فـيـ النـقـاطـ التـالـيـةـ :

١- نريد أولاً الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خلقه وعاطفته ، وفي عمله وفي تصرفه. فهذا هو تكويننا الفردي.

٢- ونريد البيت المسلم... ونحن لهذا نعنى بالمرأة ، ونعنى بالطفولة.

٣- ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله.

٤- ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد... ونحن لهذا لا نعرف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه ، ولا نعرف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.

٥- ونريد بعد ذلك أن نضم إلينا كل جزء من وطننا الإسلامي.

٦- ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حيناً من الدهر.

٧- ونريد بعد ذلك ومعه أن نعلن دعوتنا على العالم ... وأن نعم بها آفاق الأرض ، وأن تخضع لها كل جبار.

ثم يقول: بأن ناساً سيقولون هذا خيال وأوهام. وذلك هو الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة ، فممكن لأعدائها فيها... ثم قال : وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لا حظ له في الإسلام (١) فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها. وليس في الطريقة الحصافية في جمعية الشباب المسلمين أو في جمعية مكارم الأخلاق مثل هذه الأهداف التي رسّمها البنا - رحمة الله - لجماعته.

الدرس الثالث :

عندما قطع البنا مراحل مهمة في بناء جماعته ، وعندما توسيع هذه الجماعة وعظم شأنها في مصر ، وكثير أتباعها ، كان لابد أن يضع لها منهاجاً علمياً تتربي عليه ، ولهذا فقد طلب من الشيخ "سيد سابق" - وكان من كبار العاملين في هذه الجماعة - أن يقوم بتأليف كتاب في الفقه ، واتفق معه على سمات هذا الكتاب ، فقام سيد سابق بتأليف كتاب "فقه السنة" ، وكتب الشيخ حسن البنا تقدمته ، وأصبح مقرراً في منهج الجماعة.

وكان الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - كما عودنا - منصفاً عندما عَدَ تأليف وتدریس هذا الكتاب مكرمة من مكارم البنا رحمة الله ، لاسيما وقد جاء هذا الحديث في وقت كانت تهيمن الصوفية والمذهبية على أجواء العلماء والمعاهد والجامعات الإسلامية في مصر ، ووجد هذا الكتاب والحمد لله رواجاً واسعاً وطبع طبعات كثيرة ، وفي هذا دليل على أن المستقبل للسنة وليس للتقليد ، وللتعصب المذهبي المذموم.

وأراد رحمة الله تربية أتباعه على التمسك بالكتاب والسنة ، وحذرهم من البدع والجمود والخرافات، ومن تقدیس أقوال الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة ، قال رحمة الله :

"وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلی الله عليه وسلم ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً لكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكن لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا". [رسالة التعاليم].

ولاشك أن كلاً يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، والبنا رحمة الله ببلاقته وحسن تعبيه ، يصور لنا بشكل آخر تجربته مع الطرق وشيوخ الصوفية ، ومن غير شك كان يحزن من شدة تقديس الأتباع والمربيين لشيوخهم ، انظر إليه وهو يحدثنا عن أتباع الشيخ الدجوي كيف ردوا عليه بقسوة لأنه خاطب الشيخ بما لا يليق... وبإساءاته للشيخ أساء للعلماء والأزهر والإسلام... والبنا أراد من الشيخ أن ينهض لمحاربة الفساد والإلحاد في مصر فكيف أساء للإسلام !؟

وهولاء تربوا على أن شيخهم لا يقول إلا الحق ، وهو ظل الله في الأرض ، وأوامره ونواهيه دين لا يجوز مخالفتها أو الخروج عليها !! والبنا لا يريد هذه التربية المنحرفة لا يريد أن يكون بين أتباعه كما كان الدجوي بين أتباعه ، ولهذا علمهم وأكده في رسالة التعليم بأنه ليس معصوماً ، ويجب أن لا يقبلوا من كلامه إلا ما كان موافقاً للكتاب والسنة ، ومن خالف ذلك فقد أساء للبنا ودعوه.

الدرس الرابع :

واجهته كما واجهت غيره من المجددين صعوبات كثيرة ، وتحديات جمة ، فما تراجع، ولا ضعف ، ولا قبل الدينية في دينه ودعوته.

- حاربه المستعمرون الإنجليز بوسائلهم المعروفة .
- وحاربه فاروق وزبانيته ، وهم الذين دربوا محاولة اغتياله .
- وحاربه حزب الوفد بإمكاناتهم الضخمة ، وشنوا عليه حملة إعلامية كاذبة ظالمة ، وكانت صحفهم تخرج كل يوم وفيها تشهير هابط بحسن البنا وأهدافه ونواياه ، والناس يتاثرون بالإعلام ، وكان قادة حزب الوفد مزيجاً من العلمانيين والأقباط .
- وحاربته بقية الأحزاب الأخرى بوسائل لا تختلف عن الوسائل التي استخدمها حزب الوفد .
- وحاربه شيخ السلطة لأن أسيادهم - فاروق والوفد - حاربوا البنا ، وأن الناس التفوا حول البنا ، وانفضوا من حولهم وتناقص عدد الذين يقبلون أيديهم .
- وحاربته ضعاف النفوس من رفاق دربه الذين لم يجدوا عنده ما كانوا ينتظرون من أطماع ، فتخلوا عنه ، وانضموا إلى حزب الوفد ، واستخدمتهم الحزب في حملته الإعلامية الفاجرة ضد حسن البنا .

وكان الرجل يتوقع مثل هذه المعوقات ، وتنبأ بها منذ بداية الطريق ، وكان قد وضع لها الحلول الناجعة... ومن هنا نخرج بفائتين :

الأولى :

هذه الأحزاب الجاهلية كاللوفد والبعث وغيرهما ليس فيها خير ولا أمانة ، وقد اتهموا أن أهواهم تتعارض مع تعاليم الإسلام وأهدافه ، فقد يصدقون في تحالفهم مع الشيوعية والصلبية والاستعمار الغربي والباطنية أما مع الإسلام فيستحيل ، والله سبحانه وتعالى حذرنا منهم بقوله :((ولا ترکنوا إلى الذين ظلموا فتقسمكم النار وما لكم من دون الله مِنْ أَوْلَيَاءَ)) [هود: ١١٣]
وقال :((لا تَجْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّوْمُ الْآخِرِ يُؤَدِّونَ مَنْ حَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَاتَهُمْ...)) [المجادلة: ٢٢] ***

الثانية :

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

يظن بعض السذج أو المهزومين أنه من الممكن أن تقوم دعوة لها أهداف نبيلة ، وأن تتسع هذه الدعوة وتحقق أهدافها دون أن تواجهها تحديات وافتراءات وأباطيل ، أو قد يتحدثون عن الصعوبات ، لكن حديثهم يبقى نظرياً ، فإذا أصبحت التحديات حقيقة ، ضعفوا وارتباوا وأضطربوا ، وفي حالة الاضطراب والضعف ينحون باللائمة على أفراد منهم لأنهم سبب هذا البلاء... ليت هؤلاء يدرسون في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم- سنن الله في ابتلاء الدعاة والجماعات الإسلامية... ليتهم يطيلون التأمل في قراءة وتدبر معاني قوله تعالى : ((أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتُكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ النَّاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَلِزْلِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)) [المتحدة ٢١]

((أَلَمْ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)) [العنكبوت: ٣-١].

لقد اشتري الإنكليز وفاروق والأحزاب ذمم بعض كبار الأدباء والمفكرين ، وكتب أحدهم ذات مرة يقول بأن حسن البناء من أصول يهودية ، ودليله على ذلك أنه يعمل في تصليح الساعات وهذه الصناعة يحتكرها اليهود ... ولسنا في صدد الرد على أقوال هذا المفترى ، ولكن نشير إلى أن مثل هذا القول اتهم به الرافضة ومن يدور في فلكهم الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ومن قبل اتهم المشركون والمنافقون واليهود رسول الله وأهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بمختلف الاتهامات الشنيعة الباطلة .

وقد صار القول مضى خصوم البناء... مضى فاروق وإذا ذُكر تذكر انحرافاته وفساده ، وسوء حاشيته... ومضى الإنكليز وأعوان الإنكليز غير مأسوف عليهم ... ومضى قادة الأحزاب الجاهلية بأوزارهم ، وبقى ذكر حسن البناء الطيب العطر ليس في مصر وحدها بل في العالم كله ((فَإِنَّمَا الزَّبْدُ فِي ذَهَبٍ جُفَاءً وَمَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيُمْكَثُ)) [الرعد/١٧].

الهوامش:

- ١- من يقرأ كتب البناء ورسائله يعلم أنه لم يرد بهذه العبارة تكفير أحد من الناس ، ولهذا رأينا التبييه.

لَا تَقُولُوا الْبَاطِلُ

أخذ الله العهد على العلماء ومن يتصدى للدعوة أن لا يكتمو العلم ، ويبينوه للناس ، ولا يخشووا أحدا إلا الله ، وقد كان شرار أهل الكتاب علماؤهم ورهبانهم بما يكتمون من البينات وبما يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، وفضل الله هذه الأمة فجعل علماءها خيارها ، فأعطوا الكلمة حقها وروعوها حق رعايتها ، والأمثلة في تاريخنا كثيرة ، جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله أن أبو جعفر الأنباري قال له عندما امتحن ليقول بأقوال المعتزلة الباطلة : "يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجربن خلق ، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير ، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ، ولا بد من الموت ، فاتق الله ولا تجب فجعل أحمد بيكي ويقول : ما شاء الله" [سير أعلام النبلاء ٢/١١].

وجاء أيضاً : قال المروذى : يا أستاذ إن الله قال ((وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ)) ، قال: يا مروزى اخرج فانظر ، فخرجت إلى رحبة دار الخلافة ، فرأيت خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر ، فقال لهم المروذى: ماذا تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد ونكتبه ، فدخل فأخبره ، فقال: يا مروذى: أضل هؤلاء كلهم .

أراد هذا الإمام المبجل أن يضحي بنفسه ولا يفسد عقائد الناس لأنه متبع ومقتدى به، وبعض من يقتدي بهم اليوم من الدعاة ، وفي غمرة فقدان الوعي الشامل والاجتهاد الدعوي الصائب يقعون في ما استطاع الإمام أحمد أن يبتعد عنه ، سواء بتزكية من لا يستحق التزكية، أو بتبرير لأوضاع غير سليمة، فيتبعهم الناس ويؤمنون بالخير ويستبشرون ، ولكن آمالهم تخيب بعدها.

وإذا كنا نحن المسلمين مأموريين بقول الحق في تقويم الناس ، وأن نعدل حتى في لحظات الغضب والشنان ؛ فهذا في معرض التقويم الشامل فنقول عن الشجاع شجاع ولو كان كافرا أو فاسقا ، ونقول عن فلان أنه خدم بلاده وأفادها من ناحية دنيوية في معرض الاعتراف بالواقع ، وهذا كله عندما تكون الصورة واضحة في أذهان الناس ولا نلبس عليهم أمور دينهم.

ونحن نعلم أنه لا أحد يكره أمثال هؤلاء الدعاة على أقوال تحسب على الإسلام والمسلمين وهي ليست بذلك ، وقد يظنون أن هذا فيه مصلحة للدين ولكن الحقيقة أن مفسدتها أكثر من مصلحتها. ولذلك نقول لهؤلاء مخلصين مشفقين : إذا كنتم لا تستطيعون قول الحق فلا تقولوا الباطل ، وذاك أضعف الإيمان.

هجر المبتدع@

الشيخ بكر أبو زيد

تكلم المؤلف في الحلقة السابقة عن مقاصد الإسلام في الهجر ، وعن أهمية ذلك الهجر لردع المبتدع وإشعاره بانحرافه وابتعاده عن الطريق السوي ، ثم تكلم عن أنواع الهجر فقسمها إلى ثلاثة أنواع، تكلم في الحلقة السابقة عن النوع الأول وهو هجر الترك، وفي هذه الحلقة يكمل أنواع الهجر.

الثاني : الهجر لاستصلاح أمر دنيوي ، أي (الهجر لحق العبد) : وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاثة ليال، رواها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، بأسانيد في الصحيحين وغيرها (١) ، وجميعها تقييد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاثة ليال ، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاثة.

ومن الهجر هنا : هجر الوالد لولده ، والزوج لزوجته ، وقد هجر النبي صلى الله عليه وسلم نساءه شهرًا.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تناجشوا ولا تبغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخيه فوق ثلاثة ليال". وبعد أن بين الخطابي رحمه الله تعالى: أن ما وراء الثلاث على المنع قال: "فاما هجران الوالد ولده والزوج لزوجه، ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاثة، وقد هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم- نساءه شهرًا". ١.٥- (٢)

وهذا النوع من الهجر من مباحث الرفق والآداب.

النوع الثالث : الهجر قضاء ، وهو من العقوبات التعزيرية للمعتدين ، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزيز^(٣).

المبحث الثالث

شروط الهجر :

الهجر الشرعي للغدار من المبتدعين ، والفساق (عبادة) ، والعبادة لابد من توفر ركنيها: الإخلاص ، وهو ميزان الأعمال في باطنها.

والمتابعة ، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها.

فلا بد من أن يكون الهجر : خالصاً صواباً ، فالهجر لهوى النفس: ينقض الإخلاص ، والهجر على خلاف الأمر : ينقض المتابعة. والله أعلم.

المبحث الرابع

صفات الهجر : (٤)

الأصل في الهجر هو الإعراض بالكلية عن المبدع والبراءة منه.

ومن مفرداته :
عدم مجالسته.

الابتعاد عن مجاؤرته.

ترك توقيره.

ترك مكالمته.

ترك السلام عليه.

ترك التسمية له.

عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام.

عدم سماع كلامه وقراءتهم.

عدم مشاورتهم.

وهكذا من الصفات التي يتäßى بها الزجر بالهجر ، وتحصل مقاصد الشرع.

المبحث الخامس

منزلة الهجر من الاعتقاد :

يؤصل علماء الإسلام (هجر المبتدع ديانة) تحت القاعدة العقدية الكبرى (قاعدة الولاء والبراء)^(٥).

ومفهوم هذه القاعدة الشريفة لدى أهل السنة والجماعة هو : الحب والبغض في الله ، فهم يوالون أولياء الرحمن ، ويعادون أولياء الشيطان ، وكلٌ بحسب ما فيه من الخير والشر.

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاث من كن فيه وجد حلوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره المرء أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" متافق عليه^(٦).

وعن أبي إمامه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب الله ، وأبغض الله ، وأعطى الله ، فقد استكمل الإيمان» رواه أبو داود والضياء^(٧).

يحيى بن معاذ : (حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ، ولا ينقص بالجفاء)^(٨).

وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام ، لكثرة النصوص عليها من الكتاب والسنة والأثر^(٩).

ومن أولى مقتضياتها - التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها - البراءة من أهل البدع والأهواء ، ومعاداتهم ، ونحوه ، على التأييد حتى يفيئوا ، وهذا موفور في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٠).

واكتفى بما أصله الإمام أبو إسماعيل الصابوني م سنة ٤٤٩ هـ رحمه الله تعالى إذ قال : (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه ، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم ، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الدين ، ولا ينظرونهم ، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالأذان قررت بالأذان وقررت بالقلوب ضررت وجرت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جررت ، وفيه أنزل الله عز وجل قوله ((إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)).

ثم ذكر علامات أهل البدع ، وعلامات أهل السنة ، ثم قال: (وأتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخراجهم وإبعادهم وإقصائهم ، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله عز وجل بمحاجبتهم ومحاجرتهم...) ١١ هـ (١١).

والعقوبة بالهجر للمبتدع إحدى العقوبات الشرعية التي ينزلها أهل السنة للمبتدع ، حسب البدع والأهواء التي يتلبسون ، بها ، ومنها ما تقدمت الإشارة إليه. والله أعلم.

المبحث السادس

الأدلة من الكتاب والسنة على هجر المبتدع ديانة :
هذا التأصيل العقدي : الزجر بالهجر للمبتدع ديانة ، مستمد من دلائل : الكتاب ، والسنة ، والإجماع وإلى بيان بعض منها :

أولاً - الكتاب العزيز :

ففيه آيات كثيرة في التأكيد على الموالاة في الله ، والمعادة فيه ، في سور : البقرة ، وآل عمران ، والأنعام ، والنساء ، والمجادلة ، وغيرها (١٢).
ونقتصر هنا على ذكر أربع آيات من سور : الأنعام ، والنساء ، وهود ، والمجادلة ، والتي نص العلماء في تفسيرها على عقوبة المبتدع بالهجر ودلائلها عليه ، وذلك باعتبار عموم اللفظ في كل آية ، وهذا هو المعترض دون خصوص السبب ، ففي عموم كل آية منها دليل على الهجر والإعراض والاجتناب ، والمجالسة ، لكل مبتدع محدث في الدين حتى يفيء ، وعلى هذا تدل كلمة من تراه من المفسرين وغيرهم.

وهذه من أجل الفوائد في تفسير النصوص من آية أو حديث ، إذ يشمل تفسيرها الأمرين:
الأول : ما هي نص فيه.

الثاني : ما يؤخذ منه حكم له وإن لم يكن نصا فيه باعتبار العموم والاستبطاط من كتاب الله تعالى وأسرار تنزيله ، وكما في حديث الصحيفة المشهور . " أو فهماً يؤتنيه الله رجلا في كتابه ".
وهذه قاعدة شريفة فلا يفوتك الوقوف عليها ، وبخاصة لدى الإمام الشاطبي رحمة الله تعالى ، وعنه بل ببسط في كتاب (حد الإسلام وحقيقة الإيمان) (١٣).
وإلى بيانها.

١-- ومنها قول الله تعالى في سورة الأنعام: ٦٨ (١٤) :
((إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّهُ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ))

وفي هذه الآية دلالة على تحريم مجالسة أهل البدع والأهواء وأهل الكبائر والمعاصي.

قال القرطبي رحمه الله تعالى : (في هذه الآية رد من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج ، وأتباعهم لهم أن يخالفوا الفاسقين ، ويصوبوا آرائهم تقية ، وذكر الفري عن أبي جعفر محمد بن علي رض الله عنه أنه قال : لا تجالسو أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله).

قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. قال ابن خوizer منداد: من خاص في آيات الله ترك مجالسته وهجر مؤمنا كان أو كافرا ، قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ، وكنائسهم ، والبيع ومجالسة الكفار وأهل البدع ، وألا تعتقد مودتهم ، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرthem ، ثم ذكر بعض الآثار عن السلف في هجر المبتدةعة) ١ هـ (١٥)(١٦).

وقال الشوكاني رحمه الله تعالى : (وفي هذه الآية موعدة لمن يتسمح بمحالسة المبتدةعة الذين يحرفون. كلام الله ، ويتلذبون بكتاب وسنة رسوله ، ويردون ذلك إلى أهوانهم المضلة وبدعهم الفاسدة ، فإنه إذا لم يذكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون ، به شبهة يشبعون بها على العامة ، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر. وقد شاهدنا من هذه المجالسة الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها : علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات ، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح، مكان فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه ، فيعمل بذلك مدة عمره ، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر) ١ هـ (١٧)

- يتبع -

الهوامش :

١- الترغيب والترهيب ٤٥٤/٤٦٢

٢- معلم السنن ٤/١١٢

٣- وانظر : كتاب التعزيز ، لعبد العزيز عامر ، ص (٢٣٧) ، وما بعدها.

٤- انظر: فتح الباري ١٢٤-١٢٣/٨ ، ١٢٤-١٢٣/٩ ، ٤٩٧/١٠ ؟ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للللاكائي ١١٤-١٥٠ ، ومبثث الآثار من هذه الرسالة.

٥- تتبّيه لهم : هذه القاعدة مشتركة لفظاً بين أهل السنة والجماعة وحقيقة لها لديهم كما علمت ، وبين الخارج (لا ولاء إلا ببراء) أي لا ولاء لأبي بكر وعمر رض الله عنهم إلا بالبراءة من أميري المؤمنين عثمان وعلي رض الله عنهم. وبين الشيعة (لا ولاء إلا ببراء) أي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رضي الله عنهم. ومعتقد أهل السنة والجماعة موالاة جميع الصحابة رضي الله عنهم بتزكية الله لهم.

تتبّيه آخر : ولدى أهل السنة والجماعة كذلك (بدعية الولاء والبراء) من وجهه : بمعنى أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة ، ويتولى من ليسوا كذلك ، كما ذكره ابن بطة رحمه الله تعالى في : الشرح والإبانة ، ص (٣٤١) رقم ٤٧٢، ٦٠١/٦٢

٧- السلسلة الصحيحة / ٣٨٠

٨- فتح الباري ٦٢،/١

٩- الدرر السننية ٢٠٨/٤ - ٢١٦ ، تحفة الإخوان/٤ - ٣١-٤ .

١٠- كما في : العقيدة للصابوني م سنة ٤٩٤ هـ رحمة الله تعالى/ ١٠٢ - ١٠٠ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ١١٤/١ ١٥٠-١٥٠ ، وفي كتاب السنة للخلال : باب مجانية من قال القرآن مخلوق كما في الفتوى ٢٨٠/٢٨ ، والاعتقاد للبيهقي : باب النهي عن مجالسة أهل البدع ومكالمتهم ١٤٥ ، والشرح والإبانة لابن بطة/٤ ١٥٤ ، ٢٧٥-٢٧٦ ، ٢٧٦-٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ١٤٥ .

١١- رسالته في العقيدة / ١٠٠ ، ١١٢ .

١٢- انظر في جمع هذه الآيات مع وجوه الاستدلال بها في : الدرر السننية ٥٧/٤ - ٦٨ ذكر عشرين آية ، وتحفة الإخوان/٤ - ١٥ ذكر ست عشرة آية.

١٣- الاعتصام ٦٢/١ ٦٧ ، ٦٧ ، ١٠٢ - ٢٥٨/٢ ، ١٠٣-١٠٢ .

وكتاب حد الإسلام للشيخ عبد المجيد الشاذلي ٣٨٨ - ٣٨٩ . وتفسير ابن كثير لقوله تعالى : ((فُلْ هَلْ نُبَيِّكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) الآية/٣-١٠٣ وفى الفوز الكبير للدهلوى/٢٦ قال : (وبالجملة إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا بل الواقع انه ما من بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو مجرد اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث : لتبعدون سنن من قبلكم).

١٤- انظر : تفسير القرطبي ٧/١٢-١٣ . فتح القدير للشوکانی ٢/١٢٢ .

١٥- تفسير القرطبي ٧/١٢ - ١٣ .

١٦- ستائي في توظيف الصحابة لهذه السنة.

١٧- فتح القدير ٢/١٢٢ .

نقد

قراءة في فكر مالك في نبي

-٣-

محمد العبدة

يرى مالك بن نبي أن من عوائق النهضة الحديثة الأمراض الاجتماعية والفكرية التي أصابت المسلمين نتيجة عهود الضعف والانحطاط ، وقد ذكرنا في نهاية المقال السابق أمثلة على ذلك ، ونتابع في هذا العدد بإذن الله آراء هذا المفكر في تشخيص الداء.

طغيان عالم الأشخاص :

عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنقاذهم من الحالة التي هم عليها بـ(البطل القادر) الذي ينتظرونـه دون أن يقوموا بجهد يذكرـ فالخلاصـ لا يتمـ بتجمعـ أناسـ علىـ مبدأـ يدافعونـ عنهـ ، ويتفانـونـ فيهـ ، ويتقـنونـ فـنـ التعاونـ ؛ـ بلـ بالـ رـجـلـ الذـيـ يـجـمعـهمـ وـيـوحـدـهـمـ ،ـ وـقـدـ يـطـولـ اـنـتـظـارـهـمـ وـهـمـ يـمـنـونـ أـنـفـسـهـمـ بـالـأـمـانـيـ ،ـ وـهـكـذاـ نـسـمـعـ الـخـطـبـاءـ لـاـ يـفـتـأـونـ يـذـكـرـونـ (ـأـيـنـ صـلـاحـ الدـيـنـ)ـ أـوـ (ـقـمـ يـاـ صـلـاحـ الدـيـنـ)ـ ،ـ فـهـمـ يـرـيدـونـ (ـصـلـاحـأـ)ـ آخرـ يـنـقـذـهـمـ ،ـ وـلـاشـكـ

إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الإسلامي ، وهو أحياناً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة (١) وقد لا يكون هناك رجل القدر ولكن (رجل النحس) الذي نلقى عليه كل ضعفنا وفشلنا ، وبدلاً من أن نتبرر الأحداث ، ونبث بطريقة أعمق عن الأسباب الحقيقة لفشلنا يمكن بكل سهولة أن نلصق التهمة بـ(رجل النحس). فعندما وقع انفصال سورية عن مصر عام ١٩٦١ قالوا : إن السبب هو رجل النحس (حيدر الكزبرى) ولكن من الواضح أن الانقلاب كان لابد واقعاً في وجود الكزبرى أو في غيابه ، فجيم عوامل التشجيع على هذا الانفصال كانت متوفرة ، سواء من الأخطاء التي وقعت أو من عدم توفر فكرة مضادة لانفصال (٢). وقد تتجسد الأفكار بأشخاص ليسوا أهلاً لحملها فتحبس كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمع الإسلامي أو على الإسلام ، وقد تتجسد بأشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهت هذه الأفكار بموتهم ، أو فتر حماس الأتباع ، لقد مارس العالم الإسلامي ، دور البطولة في كفاحه ضد الاستعمار عندما بزغ في سمائه أبطال مثل عبد الكريم الخطابي ، وعمر المختار ، وعز الدين القسام... ولكن مشكلة المسلمين الأساسية لم تحل " لأن من طبيعة هذا الدور أنه لا يلتقي إلى حل المشاكل التي مهدت للاستعمار وتغلله داخل البلد " (٣) ولا يعني هذا إنكار دور هؤلاء الأبطال ، أو التقليل من شأنهم ، ولكنها العودة إلى الأصل وهو إنشاء تيار إسلامي قوي يتعلّق بالمبادئ ويقوم بالجهد الجماعي ، ولذلك جاءت الآية القرآنية حاسمة في هذا الموضوع ، إن الواجب على المسلمين قيادة الدعوة وحمل الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)) [آل عمران: ٤٤].

يركز مالك بن نبي في أكثر كتبه على هذا المرض ، ويطالب المسلمين ، والشباب بشكل خاص ، بأن يتحول للارتباط بالمنهج لا بشخص معين ، لأن هذا الشخص مثل الرئيس الذي يقود عربات القطار ، فإذا انحرف انحراف القطار كله ، وهذا الذي يثيره الأستاذ مالك صحيح بشكل عام ولكنه بالغ في تهميش دور الأشخاص مع أنهم هم الذين يحملون الفكرة ويجسدونها عملياً حتى يقنع الناس بها ، وكلامه فيه شيء من التجريد والمثالية ، وهذا الإسلام ، وهو حق صريح ، إذا لم يحمله أشخاص يتمثلونه ويثرونه بين الناس فلا ينتشر إلا قليلاً.

طغيان الأفكار :

إذا كان هناك طغيان في عالم الأشياء وعالم الأشخاص ، فقد يصل الأمر إلى طغيان في عالم الأفكار ، فعندما يكون المجتمع في حالة مضطربة ، فلا هر بدأية دخول الحضارة ، ولا هو خارج تماماً عن الحضارة ، في هذه الحالة قد يفقد المتعلم تكيفه مع الوسط الاجتماعي ، أو لا يستطيع أن يقوم بعمل مثمر يرضي ضميره ، عندئذ يلجأ إلى البحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق ، وبدل أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل فهو يتكلم عن الماضي الذي ليس له صلة بالحاضر ، أو يفتعل معارك وهمية ليكون هو أحد أبطالها ، وتدفع المطابع كل يوم عشرات الكتب التي لا تمس الواقع المعاش بل هي هروب مفتعل من الواقع ، وقد تطغى الأمور النظرية على مدرس في الجامعة فيتحدث عن تركيب الأدوية وعن النباتات ويجهد نفسه في وصف بعض النباتات بدلاً من أن يمد يده من النافذة ويقطف واحدة منها ليقدمها إلى الطلبة حية نابضة ، ولكنه مع الأسف يبحث عنها في الكتاب ، فهو كل شيء بالنسبة له (٤).

وتد بملغ الخلل في عالم الأفكار ، إلى درجة أن يعرقل المبادرات والجهود ، وهو ما يسميه مالك بن نبي (الأفكار الميتة) (فالبديهيات في التاريخ ، كثيراً ما قامت بدور سلبي كعوامل تعطيل مثل بديهيّة :

الأرض مسطحة ، فإنها حالت دون اكتشاف أمريكا قروناً طويلاً^(٥) ، والوصلة التي ساعدت كولومبس على اكتشاف أمريكا هي من اختراع المسلمين ! ، وقد كان من حكم الطب القديم أن الحرارة مثلًا دواؤها الرطوبة ولا بأس بهذه الحكمة ما لم تكن قيداً يقيد الفكر فلو استسلم الطب لحكمة بهذه مع صلحيتها في بعض الظروف لما وجد (باستور) طريقاً لاكتشاف العلاج النافع لداء (الكلب) مثلًا^(٦).

و لا شك أن هناك كثيراً من الأفكار خذلت أصحابها لأنها لا تحمل أصولاً صحيحة ، فكم أهدر من الوقت في جدل ومناقشات ، وكم سودت من صفحات مبنية على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، وكم عاش المسلمون متأثرين بأفكار الصوفية التي تدعو إلى البطالة والزهد غير المشروع حيث كان مثلهم الأعلى (المجاديب).

الحق والواجب :

يميل الفرد بطبيعته إلى نيل حقه ، وقد ينفر من القيام بواجبه ، والأمة التي تصاب بمرض (السهولة) وعاشت قرونًا من التخلف ، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيراً هو المطالبة بالحقوق ، ونسيان الواجبات ، فهي تشبه الكائن (الأميبي) المتسلط ، حتى إذا رأى فريسة هينة ابرز إليها ما يشبه اليد ليقتضها ، ثم يهضمها في هدوء وبقى هذا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء الاستعمار لم يدع له شيئاً فتركت ضميره (أي معدته) فمد يده إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق)^(٧).

وكان هذا منشأ سياسة الدجل التي مارسها من يتقن هذه الأدوار ، وللمطالبة بالحقوق إغراء شديد فهي كالسم لا يجذب الذباب ويتجنب الانتفاعيين ، بينما كلمة الواجب لا تجتنب غير (النافعين)^(٨) ، وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب ويلعبون بمفتاح (الحقوق) فسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات وتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة ومجلس الأمن والرأي العام العالمي ولكن ما من مجيب ، لأن هذه الأصنام ما نصبت إلا لتخدير الشعوب وتعليمها لغة الاستجداء.

وعلى الصعيد السياسي فإن كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق وتمزق ، وهكذا ما خرجت دولة من دول العالم الثالث من ربقة الاستعمار إلا وتناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة ، بدلاً من أن يتكلموا عن الواجبات ، وهذا ما حصل في الجزائر ، واليمن الجنوبي ، ونيجيريا ، والكونغو ...^(٩).

ومن الأمثلة التي ترويها ذاكرة الأستاذ مالك بن نبي حول هذا الموضوع : "شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلاً من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري وهي قضية الأممية ، يقفون منها موقفاً جديراً باللحظة ، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات الطويلة لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير ، موضحين نتائجه المنكرة في حياة الفرد ، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية ، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تقطع أنفاسهم عن الكلام ، وتمر الأعوام تلو الأعوام والمشكلة لا تجد في مجدهم حلها ، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها ، لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام ١٩٤٠ قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحله بالنسبة للطائفة اليهودية (مسايرة لألمانية الهتلرية) وشعرت الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستذكر هذا الإجراء ، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر ، وإنما اجتمعت النخبة فيها

ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها ، وحددت موقفها بأن يتطلع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم ، وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة ، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتقىق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامي اليهودي أغزر علمًا من زميله الجزائري ، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة" (١٠).

مثال آخر يتذكره ابن نبي وهو يحل هذه المشكلة : " وبدلا من أن تكون البلاد (الجزائر) ورشة للعمل المثير والقيام بالواجبات فإنها أصبحت منذ سنة ١٩٣٦ ، سوقاً للانتخابات ، وصارت كل منضدة في المقاهي منبراً تلقى منه الخطاب الانتخابية ، وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب ، أو قطيع انتخابي يقاد إلى صناديق الاقتراع ، وفي هذا اختلاس أي اختلاس للعقول التي أشرف على قطف ثمار نهضتها" (١١).

وهذا المرض لا يزال مسيطرًا على العقول ، فكثيراً ما نسمع في قرية من القرى أو حي من الأحياء المطالبة بحقهم في فتح طريق أو تنظيف شارع أو فتح مدرسة ، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس القيام بالواجب عندما أعطى الذي جاء يطلب صدقة حبلاً وفأساً وأمره أن يحثّب ولا يتکفف أيدي الناس" (١٢).

العقلية الذرية :

يقصد بهذا المصطلح أن بعض الناس "ينظر إلى الأحداث والواقع مجرأة منفصلة فردية ، كأنما في مجموعها لا تكون حلقة من التاريخ وإنما كوماً من الأحداث" (١٣).

وهذه العقلية موجودة في أوساط المسلمين بسبب بعدهم عن (الفعل الحضاري) وبسبب التكوين الاجتماعي الذي ورثناه ، ومن مظاهرها "أن جهودنا في كل مجال لا تتسم بالجهد المتواصل ولكن بالمحاولات المتتابعة ، مما أن يبدأ نشاط ما حتى يذهب فجأة كأنه ثبة برغوث أو كأنه مركب على صورة الخط المنقط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً ، ولنعتبر على سبيل المثال كم منذ نهاية الحرب ظهرت مجلة في بلادنا ثم اختفت بنفس السرعة" (١٤).

ومن مظاهر هذه العقلية "العجز عن أن نعقد صلات بين الأفكار وعن أن نعطي لمناقشة مشكلة ما حركة متصلة مطردة لا يحجل فيها الفكر من نقطة إلى نقطة ، بل يطرد دائمًا من مقدمة إلى نتيجة" (١٥) "وإذا كان من الممكن تجزئة المشكلة لتجزئها حلولها (وكل الطرق تؤدي إلى روما) ولكن الطريق عبر المنهج هو أطول الطرق بلا شك ، إن طريق الحضارة لا يمكن خطه بإقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسدًّا هنالك ، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات" (١٦).

ولو أتنا تعودنا الربط والتعميم وتتبع الجزئيات من الكليات لما استغربنا تشابه المشكلات الخارجية التي يواجهها العالم الإسلامي ، فالعالم الذي نواجهه (الاستعمار) لا تأتي فيه الأشياء عفواً وإنما كنتائج لخطط محكمة ، فعندما تفشل بعثة علمية في بلاد الغرب أو أحد أفراد هذه البعثة نفاجأ : كيف حصل هذا؟" (١٧).

ولو تتبعنا بعض الظواهر المحيزة في العالم الإسلامي لوجدنا أن المحرك لها واحد ، ولكن عقلية تجزئ الأشياء تجعلنا لا نشعر بالقاسم المشترك فيما بينها.

إن هذا النزوع نحو تجزئة مشكلة الحياة إلى ذرة ذرة ، وهذا العجز عن التعميم ليس من خواص الفكر المسلم كما يحاول أن يؤكده المستشرق الإنكليزي (جب) "بل هو طراز للعقل الإنساني بعامة

عندما يقصر عن بلوغ درجة معينة من النضج ، وإن التراث الثقافي الخطير الذي خلفته الحضارة الإسلامية يظل شاهدا على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية بالإحساس (بالقانون) وهو يستلزم القدرة على التركيب ، وأصول الفقه الإسلامي أكبر دليل على ذلك" (١٨).

التعلم والحرفية في الثقافة :

عانت مجتمعاتنا في عصور الضعف مشكلة (الأمية) والجهل ولكنها عندما حاولت النهوض أصبت بمرض مستعص و هو (التعلم) أو الحرفية في التعلم وحمل اللافتات العلمية " وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول ، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيّره ضميراً فعلاً ، بل ليجعله آلة للعيش ، وسلمًا يصعد به إلى (الوظيفة) ، وهذا يصبح العلم عملة زائفة غير قابلة للصرف ، وإن هذا النوع من الجهل لأدھى وأمر من الجهل المطلق ، فالجاهل هنا لا يقوم الأشياء بمعانيها ، ولا يفهم الكلمات برماميها ، وإنما بحسب حروفها ، وكلمة (لا) تساوي عنده (نعم) لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية.

وكلام هذا المتعلم ليس (كتهته) الصبي فيها براءة وإنما (تهاه) يتمثل فيها شيخوخة وداء عossal، فهو الصبي المزمن" (١٩).

لقد تحولت اللافتات العلمية زينة تتصدر المجالس ، وألقاباً للفاخر ذلك أن نزععة المديح والألقاب قد أسرتنا منذ عهود الانحطاط ، فألقاب مؤلف أي كتاب لابد أن تملأ نصف الصفحة الأولى على الأقل ، فهو العالم العلامة والحضر الفهامة...

ونظرة إلى الصحف الآن التي تعيش على المدح تكفي لنعلم كم نعيش تحت أسر الكلمات الطنانة التي ليس لها معنى ، وإنما هو الغرام الأحمق بمجرد الكلام ، "وفي هذا ضرر كبير على كيان الأمة لأنها تفقد حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح" (٢٠) ، ويصبح المثل الأعلى من هو أقدر على الكلام ولو لم يكن له أي دور اجتماعي "وقضية الجهل لا تعالج بمجرد وضع البرامج التعليمية ، بل يجب أن يكون أولاً عملية تصفية نفسية ، وبكلمة واحدة أن يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة" (٢١).

هذه نماذج لبعض الأمراض التي تعيق النهضة كما يراها مالك بن نبي ، ولم نتعهد الاستقصاء ، وقد يقال هنا : كيف لا يذكر أصل الداء وهو بعد الناس عن فهم العقيدة الإسلامية الصافية ، عن فهم التوحيد كما جاءت به الرسل عليهم السلام ، وللحواب على هذا نقول :

إن مالك بن نبي كمفكر يهتم بشؤون النهضة والإصلاح ويشخص الأمراض الاجتماعية التي أصابت العالم الإسلامي والتي تعيقه عن النهوض ، فقد يكون المسلم صاحب فهم سليم ولكن فيه هذه الأمراض ، فهو يعالج هنا كالطبيب المتخصص.

٢ - كان مالك بفطرته يعلم أن الرجوع إلى منهج خير القرون هو الصواب ، ولذلك انتقد منهج المدرسة الإصلاحية في إحيائها (علم الكلام) يقول منتقداً الشيخ محمد عبده الذي "ظن كما ظن فيما بعد الدكتور محمد إقبال أن من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس ، بيد أن كلمة (علم الكلام) ستصبح قدرًا مسلطًا على حركة الإصلاح الذي حاد بها جزئياً عن الطريق" (٢٢).

"وعلم الكلام يمجد الجدال ويشهو المشكلة الإسلامية ، ويفسد طبيعتها ، حيث يغير المبدأ السلفي في عقول المصلحين أنفسهم" (٢٣).

٣ - إن مالك كغيره من المفكرين وكثير من المسلمين يظنون أن العقيدة هي الإيمان بالله ولا يفرقون بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقد يؤمن الإنسان بوجود الله ، ولكنه يعرض عن عبادته

والخضوع لشرعه ، والرَّسُول دعَتِ الْأَمْمَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، يوضَّحُ تصورُهُ هَذَا قَوْلُهُ : " وَالْمُسْلِمُ - حَتَّىٰ مَا بَعْدَ الْمُوْهَدِينَ - لَمْ يَتَخَلَّ مُطْلَقاً عَنْ عِيْدِتِهِ ، فَلَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا ، وَلَكِنَّ عِيْدِتَهُ تَجَرَّدَتْ عَنْ فَاعْلَيْتَهَا ، وَإِنْ مُشَكَّلَتْنَا لَيْسَتْ فِي أَنْ نَبْرَهُنَّ لِلْمُسْلِمِ عَلَىٰ وَجُودِ اللَّهِ بَقْدَرِ مَا هِيَ أَنْ نَشْعُرُهُ بِوْجُودِهِ وَنَمَلَأُ بِهِ نَفْسَهُ " (٢٤). إِنْ ضَعْفَهُ فِي الْعِلُومِ الشَّرْعِيَّةِ جَعَلَهُ لَا يَتَبَيَّنُ أَهْمَيَّةُ فَهُمُ التَّوْحِيدُ فَهُمَا صَحِيحًا ، وَأَنَّ الْخُلُطَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ هُوَ أَسْبَابُ الْبَلَاءِ .

الهوامش :

- ١- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار / ١٠٤,
- ٢- المصدر السابق / ١٠٤,
- ٣- شروط النهضة / ٢٣,
- ٤- مشكلة الأفكار / ١٠٦,
- ٥- تأملات / ١٨٩,
- ٦- المصدر السابق / ١٩١,
- ٧- وجهة العالم الإسلامي / ١٣١,
- ٨- بين الرشاد والتباطئ / ١٢٩,
- ٩- بين الرشاد والتباطئ / ٢٩,
- ١٠- تأملات / ١٤٠,
- ١١- شروط النهضة / ٤٨,
- ١٢- معنى لحديث متفق عليه.
- ١٣- الصراع الفكري / ٥٣,
- ١٤- في مهب المعركة / ١٥٤, ، ١٩٤,
- ١٥- فكرة الأفرو آسيوية / ٧٩,
- ١٦- المصدر السابق / ٨٠,
- ١٧- الصراع الفكري / ٣٤,
- ١٨- وجهة العالم الإسلامي / ١٥٠,
- ١٩- شروط النهضة / ١٢٧,
- ٢٠- وجهة العالم الإسلامي / ٥٢,
- ٢١- تأملات / ١٩١,
- ٢٢- وجه العالم الإسلامي / ٤٧,
- ٢٣- المصدر السابق / ٤٩,
- ٢٤- المصدر السابق / ٤٨.

تعليق على مقال

**مدى تدخل الدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال
للشيخ عثمان جمعة ضميرية**

عبد العزيز بن حمد محمد

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن
محمدًا عبده ورسوله. أما بعد :

فقد كتب الشيخ الفاضل : عثمان جمعة ضميرية مقالاً في مجلة (البيان) (العدد الثالث عشر)
بعنوان: "مدى تدخل الدولة في فرض الضرائب وتوظيف الأموال" ، وخلص إلى مشروعية
فرض الضرائب بشروط ذكر بعضها. وقد كان لي بعض الملاحظات على ذلك المقال فأحببت أن
أذكر شيئاً منها ، ولست متعرضاً لتحرير القول في المسألة ، فأدع ذلك لعلمانا حفظهم الله.
أولاً : الكلام الذي نقله الكاتب حفظه الله عن الغزالى والجوبى والشاطبى مرتبط كله بالجهاد
والاستعداد له وحفظ الأمن ، وأين ذلك من الضرائب المتنوعة التي تفرض اليوم ، ولا تستخدم في
الضروريات فقط ، بل تتعدى ذلك إلى الحاجيات والتحسينات ، ومجالات الفساد
المتنوعة. وإنما يصح الاستشهاد بكلام العلماء المذكورين - رحمهم الله - على الضرائب
التي يحتاج إليها في القيام بالواجبات فقط.

ثانياً : قال الشيخ - حفظه الله - ص ٤٧ : "ومن (في الأصل: مم) عرض لهذه المسألة ، وأيدتها
بالنصوص الشرعية والحجج القوية، الإمام ابن حزم في كتابه العظيم (المحل).." .
و الواقع أن كلام ابن حزم ليس عن الضرائب وحكمها ، وإنما هو عن إلزام الأغنياء بسد حاجات
الفقراء ، إذا لم تقم الزكوات بهم. وأما موقفه من الضرائب ، فقد ذكره في كتابه "مراتب الإجماع" ،
فقال ، ص ١٢١ :

"واتفقوا أن المراسد الموضوعة للمغارم على الطرق و عند أبواب المدن وما يؤخذ في الأسواق من
المكوس على السلع المجلوبة من المارة والتجار ظلم عظيم وحرام وفسق ، حاشا ما أخذ على حكم
الزكاة وباسمها من المسلمين من حول إلى حول مما يتجرون به ، وحاشا ما يؤخذ من أهل الحرب
وأهل الذمة مما يتجرون به من عشر أو نصف عشر ، فإنهم اختلفوا في كل ذلك ، فمن موجب أخذ
كل ذلك ومن مانع من أخذ شيء منه إلا ما كان في عهد صلح أهل الذمة مذكورة مشترطاً عليهم فقط
". وهذا الذي اعتمدته شيخ الإسلام كما سيأتي.

ثالثاً : قال الشيخ - حفظه الله - ص ٤٤ : "عرض فقهاء الشريعة الإسلامية توظيف الأموال على
الأغنياء ، عند الحاجة ، وقررروا جواز ذلك..." .

وقد يفهم من الإطلاق أن هذا قول العلماء كافة ، وليس الأمر كذلك ! وأول من عرف عنه القول
بمشروعية توظيف الوظائف أبو المعالي الجوبى ، وهو يقول عن نفسه في "غياث الأمم" بتحقيق
الديب، ص ٢٦٦ :

"لست (أحاذر) إثبات حكم لم يدونه الفقهاء ، ولم يتعرض له العلماء ؛ فإن معظم مضمون هذا الكتاب
لا يلغي مدوننا في كتاب ، ولا مضموننا لباب ... فليكن الكلام في الأموال وقد صفر بيت المال واقعة لا
يعهد فيها للماضيين مذهبًا ، ولا يحصل لهم مطلبًا ، ولنجر فيه على ما جرى عليه الأولون إذ دفعوا
إلى وقائع لم يكونوا يألفوها ، ولم ينقل لهم مذاهب ، ولم يعرفوها". وتبع الجوبى على كلامه تلميذه
الغزالى ، ونقل الشاطبى كلام الأخير موافقاً له كما وافقهم على ذلك علماء آخرون. وقد خالف في
ذلك غيرهم مثل ابن حزم كما مرّ معنا ، وابن تيميه كما سيأتي.

ومما يوضح الخلاف في المسألة من قديم ، ما ذكره التبكري في كتابه المطبوع بهامش "الديباج
المذهب" في ترجمة الشاطبى صاحب "الاعتصام" ، إذ قال ص ٤٩ :

"وكان صاحب الترجمة من يرى جواز ضرب الخراج على الناس عند ضعفهم وحاجتهم ، لضعف
بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقى في كتاب الورع قال : توظيف الخراج

على المسلمين من المصالح المرسلة ولاشك عندنا في جوازه وظهور مصلحته في بلاد الأندلس في زماننا الآن لكثره الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين ، سوى ما تحتاج إليه الناس، وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس. وإنما النظر في القدر المحتاج إليه من ذلك ، وذلك موكول إلى الإمام... وكان خراج بناء سور في بعض مواضع الأندلس في زمانه موظفاً على أهل الموضع ، فسئل عنه إمام الوقت في الفتيا بالأندلس الأستاذ الشهير أبو سعيد بن لب فأفتى أنه لا يجوز ولا يسوغ ، وأفتى صاحب الترجمة بسوعه، مستنداً فيه إلى المصلحة المرسلة ، معتمداً في ذلك إلى قيام المصلحة التي إن لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت... ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور...".

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقد قال (مختصر الفتاوى المصرية،ص ٤٥٥): "... في أوائل الدولة السلجوقية أفتى طائفة من الحنفية والشافعية - إذا لم يكن في أموال بيت المال كفاية لرزق الجنديين يحتاج إليهم في الجهاد - أن يوضع على المعاملات ، وأنكر ذلك غير هؤلاء ، وحکى أبو محمد بن حزم في كتاب الإجماع : إجماع العلماء على تحريم ذلك، وقد كان نور الدين محمود الشهيد بن زنكي قد أبطل جميع الوظائف المحدثة في الشام والجزيرة ومصر والهجاز ، وكان أعرف الناس بالجهاد ، وهو الذي أقام الإسلام بعد استيلاء الإفرنج والفرامطة على أكثر بلاده".

وقال أيضاً في "الأموال المشتركة" (١): "... وأما من بعد الخلفاء الراشدين فلهم في تفاصيل قبض الأموال وصرفها طرق متنوعة: منها ما هو حق منصوص عليه موافق لكتاب والسنة، ومنها ما هو اجتهاد يسوعغ بين العلماء إذا كان الإمام من أهل الاجتهاد وله علم ، وقد يسقط الوجوب بأعذار وبياح المحظور بأسباب ، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ، ومنها ما هو اجتهاد ولكن صدوره لعدوان من المجتهد أو تقصير منه شاب الرأي فيه الهوى ، فاجتمعت فيه حسنة وسيئة ، وهذا النوع كثير في الملوك وغيرهم جداً ، ومنه ما هو معصية محضة لا شبهة فيه بتراك واجب أو فعل حرم... ولم أعلم أن في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية وظفوا على الناس وظائف تؤخذ منهم غير الوظائف التي هي مشروعة في الأصل... وكانت سير الملوك تختلف... ومنهم من يقصد اتباع الشريعة وإسقاط ما يخالفها ، كما فعل نور الدين لما أسقط الكلف السلطانية المخالفة للشريعة التي كانت تؤخذ بالشام ومصر والجزيرة ، وكانت أموالاً عظيمة جداً ، وزاد الله البركات ، وفتح البلاد ، وقمع الأعداء بسبب ذلك ، لما عدل وأحسن.

ثم هذه الوظائف السلطانية التي ليس لها أصل في كتاب ولا سنة ، ولا ذكرها أحد من أهل العلم المصنفين في الشريعة ، ولا لها أصل في كتب الفقه من الحديث والرأي ، هي حرام عند المسلمين ، حتى عند من يأخذها ، ويعرف حكم الله ، وقد ذكر ابن حزم إجماع المسلمين على ذلك. ومع هذا ، فبعض من وضع بعضها وضعه بتأويل واجتهاد علمي ديني ، واتفق على ذلك أهل الفتوى والرأي من بعض علماء ذلك الوقت وزرائهم... في نصف المائة الخامسة حدثت أمور منها بناء المدارس والخوانق ووقف الوقوف عليها ... وصنف أبو المعالي الجويني كتاباً للنظام ، سماه غياث الأمم... وذكر فيه قاعدة في وضع الوظائف السلطانية عند الحاجة إليها للجهاد ، فإن الجهاد بالنفوس والأموال واجب ، بل هو من أعظم واجبات الدين ، ولا يمكن حصول الجهاد إلا بالأموال التي تقام بها الجيوش ، إذ أكثر الناس لو تركوا باختيارهم لما جاهدوا لا بأنفسهم ولا بأموالهم ، وإن ترك. جمع الأموال وتحصيلها حتى يحدث فتق عظيم من عدو داخلي أو خارجي تفريط وتضييع ، فالرأي أن

تجمع الأموال ، وترصد للحاجة ، وطريق ذلك أن توظف وظائف راتبة لا يحصل بها ضرر ، ويحصل بها المصلحة المطلوبة من إقامة الجهاد.

والوظائف الراتبة لابد أن تكون على الأمور العادية ، فتارة وظفوها على المعاوضات والأملاك ، مثل أن يضعوا على البائع والمشتري في الدواب والحبوب والثمار وسائل الأطعمة والثياب مقداراً ، إما على مقدار البيع وإما على مقدار الثمن ، ويضعوا على الجعالات والإجرات ، ويضعوا على العقارات من جنس الخراج الشرعي ، فكان ما وضعوه تارة يشبه الزكاة المفروضة المنشورة ، وتارة يشبه الخراج الشرعي ، وتارة يشبه ما يؤخذ من تجار أهل الذمة وال Herb ، وتارة يشبه المكس.

ومنهم من يعتدي فيوضع على أثمان الخمور ومهور البغايا ونحو ذلك ، مما أصله حرم بإجماع المسلمين ، ومنهم من يضع على أجور المغاني من الرجال والنساء ...

حقيقة الأمر في ذلك أن هذا من القسم الثالث والرابع ، فإن هذا إذا صدر باجتهاد فهو في الأصل مشوب بهوى ومقرن بقصير أو عدوان ، وإن التقصير أو العدوان صادر أيضاً من أكثر الرعية ، فإن كثيراً منهم أو أكثرهم لو تركوا لما أدوا الواجبات التي عليهم من الزكوات الواجبة والنفقات الواجبة والجهاد الواجب بالأنفس والأموال ، كما أنه صادر من كثير من الولاة أو أكثرهم ، بما يقضونه من الأموال بغير حق ، ويصرفونه في غير مصرفه ، ويتركون أيضاً ما يجب من الأمر والنهي ، فجمع هذه الأموال وصرفها هي من مسائل الفتنة ...".

وقد أطلت النقل من "الأموال المشتركة" لأهمية الكلام ، ولعدم توفر المصدر عند كثير من القراء فيما أظن.

رابعاً : نقل الشيخ عثمان - حفظه الله - عن بعض العلماء تضييف حديث فاطمة بنت قيس عن ابن ماجة ، ولفظه : "ليس في المال حق سوى الزكاة" ، وسكت عن حديثها عند الترمذى بلفظ . "إن في المال حقاً سوى الزكاة" ، مع أن الإسناد واحد ، وقد ضعفه العلماء للعلة ذاتها.

وإنما اختلف العلماء في لفظ ابن ماجة : هل هو خطأ من بعض النساخ ، أم هو هكذا ؟ وانظر في ذلك : السنة للبيهقي (٤٤/٤) ، وتحفة الأشراف للمزري (٤٦٥/١٢) مع تعليق الحافظ في "النكت الظراف" "والاظراف بأوهام الاظراف" لولي الدين العراقي (ص ٢٣٠) ، وانظر كلامه أيضاً في "طرح التثريب" (٤/١١)، "التلخيص الحبیر" لابن حجر (٢/٦٠)، وحاشية تفسير الطبری لأحمد شاکر (٣/٤٤)، وحاشية سنن ابن ماجة بتحقيق الأعظمي (١/٣٢٨).

خامساً . نقل الشيخ عثمان - حفظه الله - (ص ٤٩) عن الشيخ حسن البنا - رحمه الله - قوله : " ومن لطائف عمر رضى الله عنه أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على العنブ ، لأنها فاكهة الأغنياء في ذلك الوقت ، والضريرية التي لا تذكر على التمر ، لأنه طعام الفقراء ، فكان أول من لاحظ هذا المعنى في الحكم والأمراء ، رضي الله عنه".

وكيف يقبل مثل هذا في بحث علمي ؟! فكان ينبغي معرفة سند الخبر وصحته قبل نقله .
هذا ما تيسر التعقیب عليه ، والموضوع بحاجة إلى بحث وتحرير ، والله المستعان .

وختاماً أسأل الله لي وللشيخ عثمان التوفيق والغفران ، وأن يهدينـا لما اختلفـ فيـهـ منـ الحقـ بـإـذـنهـ ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبـيناـ محمدـ وآلـهـ وصحـبهـ وسلمـ .

١- رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، أخر جها الدكتور ضيف الله بن يحيى الزهراني ، عام ١٤٠٦ هـ ، اعتماداً على مخطوطة في مكتبة الأوقاف ببغداد ، تحت رقم ١٣٧٥٤ ، لكثرة ما في طبعته من

تصحيفات ، فقد اعتمدت على صورة المخطوط الملحق "بملاحظات على تحقيق كتاب الأموال المشتركة" لعبد العزيز ابن إبراهيم المرداس ، نشر دار ابن القيم بالدمام (الأوراق : ٤ - ٦).

دراسة التراث والعقد الحربي أصوات على مشاريع فكر

محمد بن حامد الأحمر

١- المستشرق فون كريمر عندما درس التاريخ الإسلامي كان يعيش فترة انتعاش القوميات الأوروبية، ويشاهد القومية الألمانية في بنائها ومجابهتها لآخرين فتناول التاريخ الإسلامي ، وفسره تفسيراً قومياً يناسب المسار الذي يعنيه الكاتب ، وهكذا رأى أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وقيام الدولة المسلمة إنما كان حاجة قومية عربية

٢- المثال الآخر الكاتب الفرنسي الماركسي مكسيم رودنسون وهو كاتب معاصر لم يزل يخط ويخلط وتتبعه الإمعات في العالم الإسلامي يصدر كل يوم دراسة ماركسيّة للتاريخ الإسلامي ، وهكذا تجد روح اليسار الفرنسي أو الأمريكي في دراسته العلوم الإسلامية . دراسة أحمد أمين :

وعندما ندرس هذه الموجات في بلادنا الإسلامية تواجهنا دراسات حديثة للتراث الإسلامي كان أولها إنتاج أحمد أمين في مشروع واسع وجاد اهتم بالنواحي العقلية والثقافية لدى المسلمين، وهذا المشروع نشأ في أحضان المنهج الاستشرافي إذ اتفق ثلاثة من أساتذة كلية الآداب في القاهرة أحمد أمين وعبد الحميد العبادي وطه حسين على أن يقوم الأول بدراسة الحياة العقلية ، وأن يدرس العبادي الحياة السياسية ، وطه حسين الحياة الأدبية ومشروع أحمد أمين جزء من كتاب كبير يضم هذه الأقسام الثلاثة وقد قرأ الثلاثة مشروع هذا العمل وأقر ووهـ

وأحمد أمين شيخ أزهري تمكّن من علوم الشريعة واللغة العربية ، ثم درس ودرّس في مدرسة القضاء الشرعي ، واتصل بمديرها عاطف بك بركات ، وكان صاحب تعليم أزهري وغربي في إنجلترا ، وأيضاً كان ملزماً بتوجّه عقلي صريح. يقول أحمد أمين : " فقد كنت إلى هذا العهد أحكم العواطف لا العقل ، لم ولا أسمح لنفسي بالجدل العقلي في مثل هذه الموضوعات فالدين فوق العقل ، فإذا جاء فيه ما فوق العقل آمنا به ، لأن الله فوق علمنا ، والله أعلم بما يصلاحنا ويعيرنا ".

"عاطف بك بركات يأبى إلا تحكيم العقل والبحث عما لا نفهم حتى نفهم ، وكان له غرام بالبحث وصبر على الجدل وكان من أثر هذا الجدل الديني أنى أعملت عقلي في تفاصيل الدين وجزئياته" ويقول في موضع آخر : "وقد أثر في أثراً كبيراً - يعني أستاذه عاطف - من ناحية تحكيم العقل في الدين ".

هذه النظرة العقلية الغربية التي لم تكن محدودة عنده أفسدت عليه جوانب خطيرة في كتبه ، إذ اضطر إلى مسايرة المعتزلة ، وإلى الطعن في الحديث وكذا أفسد عليه تقديره لمناهج المستشرقين وقد صرَّح بحبها واحترامها واستفادته منها ، ولا يعييه هنا أن استعار منهج البحث ولكن الذي حدث له هو نقل الأفكار والنظريات والبحث لها عن شواهد فيما يدرسه.

ومن الغريب أنه وهو يدرس هذه القضايا يقول في فجر الإسلام : "مسلكنا في سائر ما يروى من الحوادث التاريخية وما يروى من أحاديث أن نتحننها من ناحيتين : من ناحية السند ، ومن ناحية المتن" وفي التطبيق يساوي بين ما يلي : كتب الحديث ، وكتاب التسلية والكذب الواسع "الأغاني" وكتب المستشرقين حتى لا تكاد تخلص من (نولدكه) و (براون) و (دي ساسي) وغيرهم. خلاصة ما وقع لأحمد أمين التورط ما بين العقلانية الحديثة والاعتزال والمستشرقين وعدم التمييز في المصادر ، وعلى الرغم من كل هذه العيوب فعلمه لم يكن مسبوقاً بشيء يفيد منه ويجنبه تلك العيوب وهو خير من كثير من جاءوا بعده ودرسوها القضايا نفسها ، ولا يفارقك الإحساس بوجود روحه الإسلامية وثقافته الشرعية فيما كتب مما يدعو للتعاطف والتقدير ولعله أحسن النية ولكنه كان ضحية لموجة التحديد والعقلنة وبداية المشاريع العلمانية التي لم يدرك أبعادها.

أما المشاريع الأخرى في دراسة التراث فمن أهمها الدراسة الشيعية والتي يعد أبرز أفرادها د. حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، والدكتور طيب تزييني ، وقربياً من هذا مشروع محمد عابد الجابري في كتابه (تكوين العقل العربي) و (بنية العقل العربي) و ("نحن والتراث") والذي لا يساير المنهج الماركسي تماماً في تقليديته ولكن يستفيد من اليسار الفرنسي ويرأوغ مع عدم وضوح في مدرسته الفكرية وهو في النهاية تلميذ وفي ومقلد لـ (ميشيل فوكو) من رواد الفلسفة البنوية الكبار.

المدرسة الماركسية :

المدرسة الماركسية في دراسة التراث هي أكثر إنتاجاً وأكثر تقليدية وجفافاً ، كما إنها لا تقدم شيئاً يستحق الاهتمام أو الجدة ، لم ؟ لأن الماركسيين في العالم يعتقدون أن فلاسفتهم الأوائل قد قاموا بعملية التفكير والتقرير ، وفرغوا منها بما على هؤلاء سوى البحث عن الشواهد والتطبيق ، وكان أول روادهم بنديلي جوزي في كتابه "من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام" والذي يشيد فيه بالإسماعيلية ومحافظتهم على مطلبهم الأكبر المثالى ومذهبهم الاشتراكي ، ويتباكي جوزي على فقدان التعليم الاشتراكي للقرامطة وعلى نسيانهم لها.

ويبدأ هؤلاء على الرفع من شأن المنحرفين والمنحلين والساقيين بل والذين خانوا بلادهم وقومهم ، فبنديلي جوزي يمجد بابك الخرمي ويشيد باشتراكيته في الوقت الذي يذكر في معاهاته مع أمبراطور الروم ضد المسلمين ، ويتمنى لو قامت الدولة الشيعية لبابك على أنقاض دولة المعتصم العباسي ، ويصف هذا المضبوغ أفكار بابك وطموحاته أنه لو نجح لأقام "دولة جديدة أساسها العدل والإخاء والمساواة" ، هكذا أي عدو للإسلام سيكون عندهم خيراً وأولى حتى لو دمر دمار الزنج وثورتهم.

وثورة الزنج في رأي هؤلاء من أعظم الثورات في العالم : ثورة العمال والبروليتاريا ، الثورة التي يشيب لهاولها الولدان لما فعل الزنج من قتل لكل الناس للعلماء والأطفال والنساء واستباحة البصرة واستعباد أهلها هي عند أصحاب هذه الدراسات الماركسية قمة التقديمية والاشتراكية.

اليسار الإسلامي :

أما أعمال د. حسن حنفي وما يسمى باليسار الإسلامي فقد لخص في مقدمته لكتاب الحكومة الإسلامية نزعته الثورية على ما فيها من سخرية ونقد لمذهب أهل السنة ، وهو في حماسته لقضايا المنهج الثوري ينسى موقع الاتفاق والاختلاف مع هذه الفرق .
وفي كتابه التراث والتجديد الذي يرى أنه "أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لكتابه تاريخ العرب والبربر ولكنه هذه المرة عن النهضة وليس عن الانهيار .

نظارات الرجل النقدية وسخريته من الواقع والتراث تصل إلى حد غير مؤدب في كثير مما يتناول بالبحث وهو يرى نفسه ثائرا إسلاميا ولكن من منطلقات يدرك هو تماما أنها غير إسلامية ، وإلا فما جدوى الاحتقار لما لدى المسلمين ، وهل الاحتقار هو الحل ومن يراجع بعض ما كتب يجد المنطقات الطبقية فيما يكتب ، وثوريته تجعله لا يتأنب أحياناً حتى مع لفظ الجلالة ، كما أن الجوانب الإيمانية والروحية لا تكاد توجد في هذه المعالجة غير الإسلامية وبخاصة أن حنفي فيما يصرح ويكتب يرى أنه يحمل الحل الوحيد النادر ! ولو تأمل بضاعته لعلم أنها غريبة كل الغرابة عن روح هذه الأمة .

الزيارة بين النساء على ضوء الكتاب والسنة

- ٢ -

خولة درويش استئذان الزوج في الخروج :

إن الإسلام يأمر بالنظام في كل الحالات، في العادات والمعاملات، في السفر والحضر، فإذا خرج ثلاثة في سفر دعا إلى تأمير أحدهم ، لذلك وتنظيمًا للمجتمع فقد جعل قوامة الأسرة للرجل ، فهو أقدر على القيام بهذا الاختصاص من المرأة ، إذ جعل مجالها الطبيعي يتنااسب مع فطرتها النفسية وتكوينها الجسمي ، وهو إمداد المجتمع المسلم بالأجيال المؤمنة المهيأة لحمل رسالة هذا الدين .

ولا أحد يذكر فضل الاختصاص من حيث قلة الجهد ، وجودة المردود ، سواء في النواحي المادية أو الإنسانية ، هذه الرئاسة والقوامة تقضي وجوب طاعة المرأة لزوجها ، وقد جاء في الفتوى لابن تيمية : (والمرأة إذا تزوجت كان زوجها أملك بها من أبويتها ، وطاعة زوجها أوجب ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسك و ما لك ").
وفى الترمذى عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة " و قال الترمذى حديث حسن .

وقد ورد أيضاً في المسند وسنن ابن ماجة وصحيـح ابن حبان عن ابن أبي أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلـى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوجـدتـهم يسجـدون لأساقـفـتهم وبطارقـتهم ، فودـدتـ في نفـسي أن نـفعـ ذلك بك يا رسول الله . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "لا تـقـلـعواـ ذلكـ، فإـنـيـ لوـ كـنـتـ آـمـراـًـ أـحـدـاـًـ أـنـ يـسـجـدـ لـغـيرـ اللهـ ، لأـمـرـتـ المـرـأـةـ أـنـ تـسـجـدـ لـزـوـجـهـاـ .ـ والـذـيـ نـفـسيـ مـحـمـدـ بـيـدـهـ لاـ تـؤـديـ المـرـأـةـ حـقـ رـبـهاـ حـتـىـ تـؤـديـ حـقـ زـوـجـهـاـ وـلـوـ سـأـلـهـاـ نـفـسـهـاـ وـهـيـ عـلـىـ قـتـبـ لمـ تـمـنـعـهـ".

وإذا أراد الرجل أن ينتقل بها إلى مكان آخر مع قيامه بما يجب عليه وحفظ حدود الله فيها، ونهاها أبوها عن طاعته في ذلك فعليها أن تطيع زوجها دون أبيها.

وإذا نهاها الزوج عما أمر الله أو أمرها بما نهى الله عنه لم يكن لها أن تطيعه في ذلك ، فإن النبي صـلى الله عليه وسلم قال : "لا طـاعـةـ لـمـخـلـوقـ فـيـ مـعـصـيـةـ الـخـالـقـ"(١).

هـذـاـ ،ـ وـطـاعـةـ الـزـوـجـ لـيـسـ تـسـلـطـاـ مـنـهـ ،ـ وـلـاـ اـمـتـهـانـاـ لـلـمـرـأـةـ ،ـ وـانتـقاـصـاـ لـشـخـصـيـتـهـاـ ،ـ إـنـماـ هـيـ مـنـ طـاعـةـ اللهـ وـالـقـرـبـاتـ إـلـيـهـ التـيـ تـثـابـ عـلـيـهـ وـيـجـبـ أـنـ تـعـتـزـ بـهـا...ـ وـهـذـاـ مـاـ يـمـيـزـ الـمـسـلـمـةـ الـوـاقـفـةـ عـنـ حدـودـ اللهـ عـنـ العـابـثـةـ الـمـتـسـبـيـةـ ،ـ التـيـ لـاـ أـبـ يـرـدـهـاـ وـلـاـ زـوـجـ يـمـنـعـهـاـ ،ـ تـخـرـجـ مـنـ الـبـيـتـ مـتـىـ تـشـاءـ وـحـيـثـ تـشـاءـ ،ـ فـتـزـرـعـ هـذـاـ الشـرـ لـتـحـصـدـ النـدـامـةـ فـيـمـاـ بـعـدـ بـمـشـاـكـلـ لـاـ تـنـتـهـيـ ،ـ وـاتـهـامـاتـ كـثـيرـةـ ،ـ وـوـاقـعـ مـرـيـرـ ،ـ وـنـتـائـجـ وـخـيـمةـ ،ـ وـلـاـ يـنـجـيـ مـنـ ذـلـكـ إـلـاـ العـودـةـ إـلـىـ تـحـكـيمـ شـرـعـ اللهـ :ـ ((ولـهـنـ مـثـلـ الـذـيـ عـلـيـهـنـ بـالـمـعـرـوفـ وـلـلـرـجـالـ عـلـيـهـنـ دـرـجـةـ))([البـرـةـ:ـ ٢٨ـ]ـ،ـ وـهـذـهـ الـدـرـجـةـ هـيـ قـوـامـ الـأـسـرـةـ).

(ولا يحل للزوجة أن تخرج من بيتها إلا بإذن زوجها ، سواء كان ذلك لكونها مريضاً أو لكونها قابلة أو غير ذلك من الصناعات ، وإذا خرجت من بيت زوجها بغير إذنه كانت ناشزة عاصية لله ورسوله ومستحقة للعقوبة)(٢).

وهـكـذـاـ فـخـرـوـجـهـاـ لـلـعـلـمـ بـغـيرـ إـذـنـ زـوـجـهـاـ نـشـوـزـ عـنـ طـاعـةـ زـوـجـهـاـ وـعـصـيـانـ اللهـ وـلـرـسـوـلـهـ فـكـيفـ إـذـاـ خـرـجـتـ لـلـتـزاـورـ أـيـاـ كـانـ السـبـبـ؟ـ!!ـ وـلـوـ كـانـ ذـلـكـ لـزـيـارـةـ وـالـدـيـهـاـ الـمـرـيـضـينـ.

(لـزـوـجـ مـنـعـهـاـ مـنـ مـنـزـلـهـاـ إـلـىـ مـاـلـهـاـ مـنـهـ بـدـ ،ـ سـوـاءـ أـرـادـتـ زـيـارـةـ وـالـدـيـهـاـ ،ـ أـوـ عـيـادـتـهـاـ ،ـ أـوـ حـضـورـ جـنـازـهـاـ .ـ قـالـ أـحـمـدـ فـيـ اـمـرـأـ لـهـ زـوـجـ وـأـمـ مـرـيـضـةـ :ـ طـاعـةـ زـوـجـهـاـ أـوـ جـبـ عـلـيـهـاـ مـنـ أـمـهـاـ ،ـ إـلـاـ أـنـ يـأـذـنـ لـهـاـ)ـ(٣ـ).

وـحتـىـ الـخـرـوـجـ لـلـعـبـادـةـ تـحـتـاجـ مـعـهـ إـلـىـ إـذـنـهـ "عنـ ابنـ عمرـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـماـ عـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ :ـ إـذـاـ اـسـتـأـذـنـكـمـ نـسـاؤـكـمـ بـالـلـيـلـ إـلـىـ الـمـسـجـدـ لـلـعـبـادـةـ فـأـذـنـواـ لـهـنـ".

وـعـنـ ابنـ حـبـانـ مـنـ حـدـيـثـ زـيـدـ بـنـ خـالـدـ :ـ لـاـ تـمـنـعـواـ إـمـاءـ اللهـ مـسـاجـدـ اللهـ "قـالـ الـقـسـطـلـانـيـ :ـ أـيـ إـذـاـ أـمـنـتـ الـمـفـسـدـةـ مـنـهـ وـعـلـيـهـنـ ،ـ وـذـلـكـ هـوـ الـأـغـلـبـ فـيـ ذـلـكـ الزـمانـ ،ـ بـخـلـافـ زـمـانـنـاـ هـذـاـ الـكـثـيرـ الـفـسـادـ وـالـمـفـسـدـيـنـ وـقـدـ وـرـدـ فـيـ بـعـضـ طـرـقـ الـحـدـيـثـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ صـلـةـ الـمـرـأـةـ فـيـ بـيـتـهـاـ أـفـضـلـ مـنـ صـلـاتـهـ فـيـ الـمـسـجـدـ وـذـلـكـ فـيـ رـوـاـيـةـ حـبـيبـ بـنـ أـبـيـ ثـابـتـ عـنـ ابنـ عمرـ بـلـفـظـ :ـ "لـاـ تـمـنـعـواـ نـسـاءـكـمـ الـمـسـاجـدـ وـبـيـوـتـهـنـ خـيـرـ لـهـنـ"ـ ،ـ وـحـدـيـثـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـاـ فـيـ مـنـعـ النـسـاءـ عـلـقـتـهـ عـلـىـ شـرـطـ لـوـ رـأـيـ رسولـ اللهـ مـاـ أـحـدـثـهـ النـسـاءـ.

وـفـيـ رـوـاـيـةـ عـنـ الـبـخـارـيـ عـنـ ابنـ عمرـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـماـ مـرـفـوـعاـ :ـ "إـذـاـ اـسـتـأـذـنـتـ اـمـرـأـ أـحـدـكـمـ -ـ أـيـ أـنـ تـخـرـجـ إـلـىـ الـمـسـجـدـ أـوـ مـاـ فـيـ مـعـنـاهـ كـشـهـودـ الـعـيـدـ وـعـيـادـةـ الـمـرـيـضـ -ـ فـلـاـ يـمـنـعـهـاـ".

قـالـ الـقـسـطـلـانـيـ .ـ وـلـيـسـ فـيـ الـحـدـيـثـ الـتـقـيـيدـ بـالـمـسـجـدـ ،ـ إـنـمـاـ هـوـ مـطـلـقـ يـشـمـلـ مـوـاضـعـ الـعـبـادـةـ وـغـيـرـهـاـ.

وـمـقـتـضـىـ الـحـدـيـثـ :ـ أـنـ جـواـزـ خـرـوـجـ الـمـرـأـةـ يـحـتـاجـ إـلـىـ إـذـنـ الـزـوـجـ)ـ(٤ـ).

أما قول القائل : إنهم لا يخرجن من بيوتهم مطلاً قوله تعالى : ((وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ)) فليس بحجة له بدليل قوله تعالى بعدها : ((وَلَا تَبَرُّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)) (والمحضود به عند خروجهن). (ومعنى هذه الآية : الأمر بلزم النساء في كل الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى هذا لو لم يرد دليلاً يخصن جميع النساء ، كيف والشريعة طافحة بلزم النساء بيوتهم والانكفاء عن الخروج منها إلا لضرورة) (٥).

(وليس معنى هذا الأمر ملزمه البيوت فلا يبرهنها إطلاقاً ، وإنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن وهو المقر وما عداه استثناء طارئاً لا يثقلن فيه ولا يستقرن وإنما هي الحاجة وتقضى وبقدرها) (٦).

وقد عرف عن أمهات المؤمنين والصحابيات أنهن كن يخرجن في حوائجهن وللمشاركة في الغزو. (فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسكنين الماء ويداوين الجرحى) (٧).

وفيه خروج للنساء في الغزو والانتفاع بهن في السقي والمداواة لمحارمهن وأزواجهن وغيرهم مما لا يكون فيه مس بشارة إلا موضع الحاجة.

وهذه أم عمارة تحدثنا حديثها يوم أحد : (خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والريح والدولة للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون ، انحررت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراحه.

وعن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني) (٨).

وتسأذنه صلى الله عليه وسلم أم سنان الأسلمية في الخروج إلى خير للسقيا ومداواة الجرحى فقال لها عليه الصلاة والسلام : «إإن لك صوابـ قد أذنت لهنـ من قومكـ ومنـ غيرـ هـمـ فـ كـونـيـ معـ أـمـ سـلـمةـ»(٩).

وفي خير أيضاً عن امرأة من بنى غفار قالت : (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو يسير إلى خير - فنداوي الجرحى ونعني المسلمين بما استطعنا. فقال : "على بركة الله" فخرجنـا معـهـ) (١٠).

(حتى المقعدة فلها الخروج في حوائجها نهاراً ، سواء كانت مطلقة ، أو متوفى عنها ، لما روى جابر قال : طلقت خالي ثلاثة فخرجت تجد نخلها فلقيها رجل فنهاها ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : "اخرجي فجذبي نخلك لعلك أن تتصدقـيـ منهـ أوـ تـفعـليـ خـيراـ".

وروى مجاهد قال : "استشهد رجال يوم أحد فجاءت نساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن. يا رسول الله نستوحش بالليل أفنبيت عند إحدانا فإذا أصبهنا بادرنا إلى بيوتنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تحدثن عند إحداكن حتى إذا أردتن النوم فلتؤب كل واحدة إلى بيتها" (١١).

ويدخل الرسول صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها امرأة قال : من هذه ؟ قالت: فلانة ، تذكر من صلاتها ، قال: "مه ، عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا ، فكان أحب الدين إليه مدام عليه صاحبـهـ" (١٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان.

كما طلب من الشفاء - وهي من المهاجرات الأولى وبأيوب النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن - قال لها صلى الله عليه وسلم : «علمـيـ حـفـصـةـ رـقـيـةـ النـمـلـةـ كماـ عـلـمـتـهاـ الكـتابـةـ»(١٣).

وكيف يكون تعليمها إلا بلقائهما معها وخروجهما إليها.
فهذه كلها حالات تخرج فيها المرأة بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وإقراره بخروجهما أو أمره وإنذهن الصريح به ، فلو كان المقصود بالقرار في البيت عدم الخروج المطلق لنهى عن الخروج ولما أذن به.

ثم إن الحبس الدائم للمرأة في البيت ما هو إلا عقوبة شرعية - كان قبل أن يشرع حد الزنا فنسخت هذه العقوبة بالحد الشرعي - أقول كان الحبس في البيوت للمرأة التي تأتي الفاحشة وذلك لقوله تعالى : ((وَاللَّاتِي يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَاءِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ إِنْ شَهِدُوْا فَأَمْسِكُوْهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)) [النساء: ١٥].

أما المرأة العفيفة الملزمة بأحكام دينها ، والتي ترافق الله تعالى في حركاتها وسكناتها فهي تقدر شرف مهمتها وعظم مسؤوليتها : إنها إن قررت في بيتهما فهي في عمل واعٍ يقظ ، لا فراغ اللاهيات ولا تقاهة العابثات من ربات الفيديو والأزياء والسينما ...

إنها تعد لأمتها الإسلامية أبطالها الذين يستعدون مجدها فتربيهم على الاعتزاز بقيم الإسلام ليغدوه بأنفسهم إن واجههم الخصوم ، ويعلمون وسعهم لإعلاء كلمة الله .
وإن أرادت الخروج من بيتهما فلن يكون ذلك إلا إن كانت المصلحة الشرعية في الخروج راجحة عنها في البقاء .

وإن خرجت : فالحدود المشروعة وبالطريقة المشروعة ، تستأنن الزوج المسلم ولا تخرج بغير إذنه ، وإن اعتبرت عاصية لمله ولرسوله ، وبالمقابل فزوجها المسلم يرعى الله فيما أئمنه ، فيحرص على أن يبعدها عن الشبهات ومواطن الزلل . ويأخذ بيدها إلى كل خير ، ليشاركها أجراها سواء كان زياراً أقاربها وصلتهم أو بر والديها ، أو صلة أخواتها في الله ، أو العلم المشروح .

ثم إن الأصل أن يبني البيت المسلم على المودة والرحمة ، لا الغلظة والتسلط . فالزوج والزوجة كلاهما يحكم الشرع ويزن الأمور بمقاييسه ، فلا يتغافل الرجل في استعمال حقه الذي منحه الله إياه ويحفظ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرأة : " استوصوا النساء خيراً " وبالمقابل لا يجمع الهوى بالمرأة ولا تستكبر عن طاعة زوجها ف تكون في عداد الناشزات .

أما عند عدم الزوج لوفاته ، أو لعدم زواج المرأة . فستأنن أبويتها وهذا من برهما وحسن صحبتهما فهما أحرص الناس على حسن سمعتها وجلب الخير لها .

الهوامش:

١- الفتاوى لابن تيميه ٣٢ / من ٢٦٤-٢٦٠ بايجاز .

٢- الفتاوى لابن تيمية ٣٢ / ٢٨١، ٣٢

٣- المغني ٢٠، ٧

٤- عون الباري ٢٨٥/٢ ٢٨٧-٢٨٥ باختصار .

٥- أحكام القرآن للقرطبي ١٧٩، ١٤

٦- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢٨٥٩، ٥

٧- شرح صحيح مسلم ٢ / ١٢ ٨٨،

٨- الإصابة ٤ / ٤٥٧

٩- الإصابة ٤ / ٤٤٣

١٠- البداية والنهاية لابن كثير ، ٤ / ٤٠

١١ - المغني ٢٢٦،/٧

١٢ - فتح الباري ١٠١،/١

١٣ - الإصابة ٣٣٣،/٤

دَفَاعُ عَنِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

منصور الأحمد

(يعلم كل من له إمام بأسرار العربية أن الأسلوب المصطلح عليه في ترتيب معاجمها لا يناسب حتى ولا الكثرين ممن نالوا قسطاً وافراً من الإهاطة بقواعد الصرف وأحكامه ، ليتمكن من رد الكلمة إلى أصلها المجرد ، توصلاً إلى الاهتداء إلى مكانها من القاموس ، على أن الاستيقاظ وما يلحق أبنية الكلم من عوارض الإدغام والإدغام الإعلال ، وغير ذلك لمن أشد الأمور تعقيداً في اللغة العربية) (١).

هذه "الكلمة" التي قدمناها تصلح نموذجاً لدعوى كثيرة ، تصدر عن أناس متعددي المشارب ، مختلفي النوايا ، لكن يجمعهم هدف واحد ، هو تزهيد الناس بالعربية ، وتنفيرهم منها ، ويتردرون إلى ذلك بما يشبه الحجج ، ويلبس ثوب الدليل ، ولكن إذا تفحصته لم تجده من الحجج ومن الأدلة في شيء . وسوف نناقش الدعوى المتقدمة ، ليتبين لنا ما تنتطوي عليه: هل هو من المسلمات الثابتة ، أم أنه ذريعة إلى أمر آخر هو الصد عن تعلم هذه اللغة ببث الكراهيّة لها في النفوس ، والتغافل عنها بكل وسيلة؟!

فيما يتصل بالقضية الأولى ، هل صحيح الادعاء أن البحث في المعاجم العربية صعب إلى هذه الدرجة - حتى على الكثير ممن نالوا قسطاً وافراً من الإهاطة بقواعد الصرف وأحكامه؟ - وهل هناك "معاناة حقيقة" يعاني منها المدرسون والطلبة في هذا المجال؟

إن الأمر انتهى بطرق ترتيب المعاجم إلى طريقتين رئيسيتين :

أولاًهما : طريقة الصحاح ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، وهي الطريقة المعروفة بطريقة "الباب والفصل" والتي رتبت فيها الكلمات في باب الحرف الأخير من جذورها ، ثم رتبت ترتيباً هجائياً داخل الباب بعد ذلك ، فـ(بدأ) وـ(نشأ) توجدان في باب الهمزة ، الأولى في فصل الباء ، والثانية في فصل النون.

الثانية : الطريقة الهجائية المألوفة الآن في كافة معاجم اللغات الأخرى ، وهي أيضاً معروفة في بعض المعاجم العربية غير الحديثة: كأساس البلاغة ، والمصباح المنير ، وهي: وضع الكلمة في باب الحرف الأول من جذورها ، مع مراعاة الترتيب الهجائي أيضاً في الحرف الثاني والثالث وهكذا. فالكلمتان السابقتان (بدأ) و (نشأ) توجد الأولى في باب الباء ، والثانية في باب النون. ومع هذا فقد صدرت طبعات للقاموس وللسان ، رتبت المواد فيها هذا الترتيب الأخير ، وهناك أخذ ورد في فائدته ذلك ، ولعل ترتيبها بهذه الصورة جاء خروجاً من كثير من التقوّلات التي تقال عن صعوبة الطريقة السابقة.

وهذه الصعوبة المزعومة في ترتيب المعاجم العربية لا تعدو ما يماثلها من الصعوبات التي يواجهها الباحث في معاجم اللغات الأخرى.

ولدى التجربة ظهر أن طريقة البحث في هذه المعاجم المتهجم عليها بالحق والباطل سهلة حتى على من لم "ينل قسطاً وافرا من الإحاطة بقواعد الصرف وأحكامه" ! ولو صرف أي طالب متوسط ساعة من وقته (بجد وحرص) لتعلم أساس طريقة البحث والتدريب عليها لكان ذلك كافياً . (وهذا الأمر لا علاقة له بما هو كائن الآن من وجود كثير من الخريجين ، ومن لا يرهقون أنفسهم للتفرغ لهذا الأمر ولو ساعة من زمن ، ثم يستغربون - ويستغرب الناس منهم - حيرتهم أمام النظر في معجم من معاجم العربية ، وبدل إلقاء اللوم على كسلهم وتقربيتهم يلقونه على هذه المعاجم الصعبة المرتفقى،المعقدة التركيب ! فهذه النتيجة المؤسفة مركبة من عدة مقدمات أفضت إليها ، وتحتاج إلى معالجة على حدة).

إن كان شأن المعاجم العربية ليس بالتعقيد الذي انتهت الكلمة السابقة إليه ؛ وأن كثيراً مما يشاع حولها هو تضخم وتهويل ؛ إذاً ، فما الأثر الذي تبقيه هذه الكلمة ومثيلاتها في نفوس أكثر قرائها ؟ إنه أثر غير محمود النتيجة ، فهو تزهيد وتبسيط ، تزهيد لأبناء العربية بلغتهم ؛ وتبسيط للهم حتى تقع عن التعرض لتعلم ما ينفع في بناء الشخصية ، والارتقاء بها . والأفكار أو عيادة مفتوحة إذا أنتفت أن تملئ بشيء ينبع منها المجتمع ، وتنشر سموم الدعاية ضده ؛ فلا بد من أن تقتنش عن بديل تملأ به الفراغ ، وتنطلع إلى محل تحله المنطقة المهيأة المفرغة ، وليس المحتل هنا غير اللهجات العالمية ، أو اللغات الأجنبية وما يلحقها من تمكّن وغلبة لما تتمثله من عقائد ، وما تجلبه من أفكار .
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خاليًا ، فتمكنا !

والآن فلننظر في بناء هذه الكلمة ذاته لنرى نصيتها من الصواب أو الحقيقة.

١ - (ليعلم كل من له إمام بأسرار العربية) عبارة يبدو ظاهرها لا غبار عليه ، ولكن أعد قراءتها كلمة لتعلم أن منطوقها يخالف ما يريد أصحابها ، فهو يريد أن يثبت بدهية وهي أن كل دارس للعربية يعلم ما سيشير إليه ، ولكن الأسرار لا تلم بها إماماً ، بل تُسْتَبْطَنُ استبطاناً ، وتعالج علاجاً مضنياً حتى تكتشف ، وعلى هذا فإن العارفين بأسرار العربية ليسوا مجتمعين على ما سينتهي إليه صاحب الدعوى ، وهذا نقض للتعميم الفضفاض : يعلم كل من له إمام ...

٢ - (... أن الأسلوب المصطلح عليه في ترتيب معاجمها...) وهذا أيضاً تعميم يضيف إلى برودته جهلاً غليظاً ، فالمعاجم العربية ليس لها أسلوب واحد في ترتيبها ، بل لها طرق متعددة ، وأساليب متنوعة. فأي أسلوب منها يعني ؟!

٣ - (... لا يناسب حتى ولا الكثرين من نالوا قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه...).
لو أنه قال مثلاً : لا يناسب من لم ينل قسطاً وافراً من قواعد الصرف وأحكامه ؛ لكان في الجملة الروح ، ولكن جنوحه إلى تضخيم ما لا يحتاج إلى تضخيم أبي عليه إلا أن يطلقها هكذا مرة واحدة أن هذه المعاجم ليس فيها خير أبنته ، لا للمبتدئين فقط بل للعلماء أيضاً وهي ليس إلا ركاماً يكدر الأذهان ويضيع الأعمار ! (وقف عند هذه الكلمات قسطاً - وافرا - الإحاطة - فهي كافية أن تلقى في نفسك الرعب ، وتبعدك الرهبة من مكانتها !)

٤ - ثم اقرأ معي تتمة الكلمة على مهل ، ألا توحى إليك - وقد فرغت منها - بوصف مهمة اكتشاف القارة القطبية ، كلف بها شخص غير مدرب ، ولا فائدة من تدريبه ، وليس هذا فحسب ، بل هو أيضاً - مجرد من أسباب مقاومة الصقير ، على علة مستكنة في جسمه؟!

كأنه يقول لمن يهم بتعلم شيء من هذه اللغة : مالك ولها العناء المعنى ، ولماذا تضيع الوقت فيما لا طائل تحته ، ولا ثمرة له ، مالك ولمعاجم العربية ونحوها وصرفها ، لماذا تفر من السهل الميسر

، إلى الحرج والتعقيد؟! وهكذا تبني جدران سميكه من الوهم والتضليل بين هذه اللغة وبين أبنائها.

وسرّح النظر في واقعنا الثقافي مشرقاً ومغرباً ، ورددده فيه صعوداً ونزولاً ترى أن مثل هذا التقبیح القولي لكل ما يتعلّق بلغتنا العربية ، والحط من شأنها قد انصاف إليه - وأسفاه - تقبیح عملی مجسم ومصور ، والحال ناطقة بهى وشاهدة عليه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال. ووالله ، إن السکوت على هجران هذه اللغة ، وعدم الغضب لها حين ترمى بالنقائص ، وتنقصَّ بالحيف ليعادل انتهاك الحرمات ، وضياع المقدسات ، إن لم يكن أكبر.

الهوامش:

١- من مقدمة قاموس إلياس العصري (عربي - إنكليزي).

رؤیة إسلامیة في المجیز والمجاز (١)

د. مصطفى السيد

يتختم علينا - بسبب من انتمائنا الإسلامي ، وهو يتتنا الإيمانية - أن نستحضر قيم الإسلام ومقوماته في قراءة أي عمل أدبي ، بل في شؤون الحياة كلها وشجونها جميعها (لأن الإسلام يتغلغل في حياة أفراده فإن مسألة التزامه في الأدب يجب أن تكون محل تقدير) كما يقول أحد النقاد (٢).

وإبراز هذه الهوية ليس بدعاً ، أو على الأقل ينبغي ألا يكون كذلك في دوائر أنصار الأدب الحديث ومحاربيه ، فهذا شيخ التحديث ، وملهم الشعر العربي الحديث رؤيته وشكله وتشكيله - ت. س. إليوت - يعلن صراحة أنه (أنكلو كاثوليكي في الدين وكلاسيكي في الأدب ، وملكي في السياسة) (٣)

ولو تجرأ مثقف ورفع عقيدته بمثل هذه المقوله عن معتقداته الإسلامية والأدبية والسياسية أمام دعاء الأدب التقديمي لأنهالت عليه النقود المتهاجمة من كل وجه.

وهذا يوسف الحال النصراني ديانته ، السوري بلدأ ، اللبناني مهجراً ، والذي يعد فنطرة مهمة بين إليوت ، وحواريه في العالم العربي ، كان يركز على بعث المفرد التوراتي والإنجيلي ، واستثمار نصوصهما في التعبير الرمزي. والدكتور عبد الواحد لؤلؤة يخبرنا أن (الكتاب المقدس كان العمود الفقري للأداب الأوروبية في شتى عصورها) (٤).

وحضور الإسلام حَكِماً لا يعني استبعاد الفائدة من إبداعات الآخرين وتجاربهم الوجدانية الناضجة في كل مجال ، فالشيطان بما يتمتع به من مكانة سيئة ، وحضور بغرض قد يقول الصدق ويتألف بالحق كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة عن الشيطان: " صدقك وهو كذوب " (٥).

وعلائق الأدب الحديث الذين يتوجس أكثرهم خيفة من الإسلام ، هل وجدوا في الأنطمة "التقديمية" الأمان على أنفسهم والضمان لفكرهم؟ أم كانت النظرة الغربية المحضة للإسلام ، والتجربة الإسلامية المشوهة في كثير من الأمكنة ؟ كانتا وراء توجسهم وبالتالي وراء اختيارهم لنماذج لا تحسب على الإسلام إلا اعتسافاً وقسرأً كما فعل صلاح عبد الصبور ، عندما اختار الحالج ليعرض من خلاله مأساة الثقافة والمتقين وحرية الكلمة ، وكيف دفع الحسين بن منصور الحالج رأسه ثمنا

لفكره (٦) ولكلمة التي آمن بها مُدينا (عبد الصبور) العلماء والقضاة الذين ساهموا ويساهمون في اغتيال (نبتة الحرية وشجرة العبرية المتمثلة بالحلاج وبالحالبيين المعاصرين).

ومطلع العادي غير المتخصص على العصر العباسي يجد أن هموم الثقافة وشجون الواقع والمستقبل وهمومه والعلاقة الأبية مع السلطة كان يمثلها الإمام أحمد - رحمه الله - الذي لم يحل سجنه وجده بينه وبين كلمة الحق ، بل إن الموت نفسه كان احتمالاً قائماً وقريباً.

إن تلك الوقفة العالية في سماء التاريخ التي وقفها الإمام أحمد - لا قتل الحلاج - هي التي كشفت للدولة العباسية عزلتها على الصعيد العلمي والشعبي.

ففقد روى الذهبي أن عالماً من كان له في العطاء سهم ، خيرته الدولة بين أن ينافق الإمام أحمد ويحتفظ بعطائه أو يستمر في تأييده لموقف الإمام أحمد فيخسر عطاءه ، فاختار الثانية ، فعلمـت العامة التي لم تكن تفهم الموضوع الذي كان محل خلاف ، فعاد الرجل إلى بيته الذي يضم بين جدرانه ثلاثة نفساً يعلوـهم هذا العالم فاستقبلوه بالتلوم فرد عليهم : إن الله لن يضيعنا ، فلم تغـب الشمس إلا وصاحبـ حـانـوتـ يـقـرـعـ بـابـ هـذـاـ العـالـمـ ثـمـ يـبـادـرـهـ قـائـلاـ : ثـبـتـكـ اللهـ كـمـاـ ثـبـتـ الإـسـلـامـ !! كـمـ كـانـ يـعـطـيـ هـؤـلـاءـ ؟ـ يـقـدـ عـطـاءـهـ مـنـ الدـوـلـةـ ،ـ فـقـالـ كـذـاـ ،ـ فـقـالـ صـاحـبـةـ الـهـانـوتـ :ـ خـذـ هـذـاـ المـبـلـغـ المـسـاوـيـ لـهـ وـلـكـ مـثـلـهـ كـلـ شـهـرـ.

هل كان عبد الصبور مهتمـ بالـ حلـاجـ لـمـاـ يـمـلـهـ مـنـ رـمـزـ ثـقـافـيـ رـافـضـ ؟ـ إـذـاـ كـانـ كـذـلـكـ فـالـإـلـامـ أـحـمدـ أولـىـ بـذـلـكـ ،ـ وـلـكـ رـفـضـ رـفـضـ إـلـامـ أـحـمدـ لـأـنـ كـانـ مـلـزـمـاـ بـحـدـودـ النـصـ إـلـاسـلـامـ فـيـ أـدـبـ الـعـلـاقـةـ معـ السـلـطـةـ التـيـ هـيـ رـمـزـ الـأـمـةـ ،ـ فـقـدـ كـانـ سـيـاطـ الـمـعـتـصـمـ تـلـهـبـ ظـهـرـهـ وـهـ يـقـولـ لـهـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ !!!ـ لـمـاـذاـ ؟ـ

لأنـ الخـلـافـ معـ السـلـطـةـ لاـ يـعـنيـ إـسـقـاطـهـ ،ـ وـلـأـنـ إـلـامـ أـحـمدـ كـانـ عـلـىـ وـعـىـ تـامـ بـالـنـتـائـجـ الـخـطـيرـةـ للـحـرـكـاتـ التـيـ أـرـادـتـ إـسـقـاطـ السـلـطـةـ اـبـتـداءـ بـحـرـكـاتـ الـخـوارـجـ وـالـشـيـعـةـ وـاـنـتـهـاءـ بـحـرـكـةـ الـفـقـهـاءـ .ـ معـ اـبـنـ الـأـشـعـثـ .ـ كـانـ مـزـيدـاـ مـنـ الضـحـايـاـ وـتـعـمـيقـاـ لـلـخـلـافـاتـ وـإـجـهـاضـاـ لـلـطـاقـاتـ الـعـالـمـةـ وـمـنـبـعاـ لـأـحـزـابـ جـديـدةـ .ـ

أمـ لـعـلـ سـرـ اـهـتـمـامـ صـلـاحـ بـالـ حلـاجـ لـصـوـفـيـتـهـ التـيـ يـنـظـرـ إـلـيـهاـ كـحـرـكـةـ اـحـتـجاجـ دـاخـلـيـةـ تـغـطـيـ أـسـئـلـتـهـ وـتـسـاؤـلـاتـهـ بـالـرـمـزـ ،ـ وـلـرـبـماـ كـانـ التـرـمـيزـ الـمـعـاصـرـ وـالـغـمـوـضـ وـالـإـبـهـامـ فـيـ الشـعـرـ وـالـقـصـةـ موـصـولاـ بـالـرـمـزـ الـصـوـفـيـ شـكـلاـ وـمـضـمـونـاـ ،ـ وـلـعـلـ ذـلـكـ يـكـشـفـ سـرـ الـاهـتـمـامـ بـالـشـعـرـ الـصـوـفـيـ مـنـ قـبـلـ الـمـدـرـسـةـ الـحـدـيـثـةـ فـيـ الـأـدـبـ .ـ

ولـئـنـ كـانـ فـوزـ نـجـيبـ مـحـفـوظـ (ـمـمـثـلـ الرـمـزـيـةـ (٧ـ)ـ فـيـ الـجـنـاحـ الـآـخـرـ لـلـأـدـبـ)ـ بـجـائـزـةـ نـوـبـلـ مـوـضـوعـ هـذـاـ مـقـالـ فـإـنـيـ أـقـولـ اـبـتـداءـ .ـ إـنـ الرـجـلـ بـكـلـ الـمـقـايـيسـ الـفـنـيـةـ قـدـ بـاتـ شـيـخـ الـرـوـاـيـةـ الـعـرـبـيـةـ كـمـاـ وـكـيـفـاـ ،ـ وـهـذـهـ حـقـيـقـةـ أـكـبـرـ مـنـ أـنـ يـمـارـيـ فـيـهـاـ جـدـلـاـ أـوـ مـتـعـنـتـ .ـ

فـقـدـ تـوـصـلـ إـلـىـ إـبـدـاعـ نـمـاذـجـ الـخـاصـةـ ،ـ وـهـذـاـ إـنـجازـ ضـخـمـ فـيـ عـالـمـ الـقـصـةـ وـالـمـقـصـودـ بـالـنـمـاذـجـ بـعـضـ شـخـصـيـاتـ رـوـاـيـاتـهـ (ـالـذـيـنـ هـمـ فـيـ حـقـيقـتـهـ مـجـرـدـ أـفـرـادـ حـيـنـ نـرـجـعـ إـلـىـ سـيـرـهـ ،ـ وـلـكـ الـبـشـرـيـةـ حـيـنـ تـأـمـلـ ذـاتـهـ فـيـهـمـ ،ـ رـفـعـتـهـمـ مـنـ مـسـتـوـىـ الـفـرـديـةـ إـلـىـ مـسـتـوـىـ الـنـمـوذـجـ)ـ (٨ـ)ـ وـمـثـلـ ذـلـكـ مـنـ الـقـرـآنـ -ـ فـرـعـونـ -ـ وـقـارـونـ وـأـيـوبـ عـلـيـهـ السـلـامـ .ـ فـالـأـوـلـ لـأـشـ اسمـ شـخـصـ بـعـيـنـهـ وـرـمـزـ وـنـمـوذـجـ لـكـلـ طـغـيـانـ سـيـاسـيـ ،ـ وـالـثـانـيـ رـمـزـ لـكـلـ طـغـيـانـ مـادـيـ (٩ـ)ـ ،ـ وـالـثـالـثـ نـمـوذـجـ لـلـصـبـرـ وـالـمـصـابـرـةـ .ـ وـلـكـنـ نـمـاذـجـ مـحـفـوظـ كـانـتـ مـحـدـودـةـ مـكـانـاـ وـمـكـانـةـ وـمـوـقـعـاـ سـيـاسـيـاـ ،ـ أـمـاـ الـمـكـانـ فـهـوـ حـيـ

(الجمالية) الشعبي بالقاهرة الذي ظل محفوظ مسكوناً بأجوائه نفسياً وتاريخياً معلناً أن (هذا الحي هو مصر) (١٠) وهو عندما ينتقل منه ينتقل جسداً وتبقي (الجمالية) مضموناً أو ينتقل إلى معادل له (كرفاف المدق) الذي هو أيضاً رمز لمصر كلها) (١١).

ولنا أن نتساءل كيف تختزل مدينة كالقاهرة، أو كيف تختصر أمة كمصر وتتوحد خصائصها بـ (الجمالية) أو (رفاقة المدق)؟.

مصر بتراثها وتراثها الفكري وعطائها المتدايق في كل العصور والدهور تضُؤ لتتمثل في حي شعبي يقول محفوظ عن خصائص الطبقات الشعبية فيه (يلعب الجنس في حياته أدواراً رهيبة في سقوط الكثريين وفي سلوكهم ، وحيث أكثر الناس يتمسكون بالشعارات الدينية ، وحيث كثير من الانتهازيين الذين يستطيعون ببساطة اللعب بالعقل الغبية) (١٢).

لم هذا الجمع بين المتمسكين بالشعارات الدينية وبين الجنس ذي الأدوار الرهيبة في السقوط؟
لم الزج باسم الدين في هذا التشكيل المتنافر؟

أما المكانة فهل هذه النماذج المنحرفة هي المثل الاجتماعي الوحيد الموجود في هذا الحي؟ وهل تقلص الخير إلى الحد الذي يخيل فيه القارئ (نجيب) تفرد النموذج الساقط وإنفراده واستئثاره بالساحة؟

وهل مسؤولية الكاتب فقط تshireح النموذج وتقييمه حتى تتحدد مواقف القراء من هذه الحشرات البشرية؟

إن ذلك إنجاز مهم ولا شك ، ولكنه ليس كافياً ، فالقرآن ذكر خيانة امرأتي نوح ولوط ثم أعقبها مباشرة بنموذج مضيء - امرأة فرعون - ولعله سلك هذا المسلك (والله أعلم) حتى لا تفتقد المرأة صورتها الطيبة بسبب هاتين المرأتين المترديتين بما أغضب الله ورسوليه ، وربما كان في استقدام نموذج امرأة فرعون من بيئته تجاوزت في فسادها حي (الجمالية) كانت امرأة فرعون تحت رجل يقول (أنا ربكم الأعلى) - ربما كان في ذلك إشارة واضحة إلى أن الزهور قد تنفتح في أسوأ الأمكنة مناخاً وبيئةً.

ولما كان فرعون يتهدد ويتوعد ويطلب إلا يحال بينه وبين موسى ((ذروني أقتل موسى)) [غافر: ٢٦] ، وكان الجمهور غارقاً في التصفيق رغبة أو رهبة لهذا البهلوان ، كان القرآن يسمعنا صوت احتجاج متعقل يجبه هذا الطوفان بقوة هائلة أو بهدوء قوي ! وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: ((وقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ)) [غافر: ٣٤-٢٨].

ألم يكن في (حي الجمالية) رجل رشيد ؟ أم أن الكاتب لم يشاً أن يوجد هذا الرجل ؟
في روایة (السكرية) يقول محفوظ على لسان سوسن حمّاد :

(المقالة صريحة و مباشرة ، ولذلك فهي خطيرة ، أما القصة فذات حيل لا حصر لها ، إنها فن ماكر) (١٣).

يقول الأستاذ إبراهيم عامر في عدد الهلال الخاص عن نجيب محفوظ ١٩٧٠ معلقاً على ذلك :
(هذه العبارة تبدو لي وكأنها الدستور الذي التزم به نجيب محفوظ منذ بدأ يكتب).

هل تخفي (نجيب) من خلال قصصه ببطاله أو من وراء أبطاله ليعرض شكوكه أو أزمته الإيمانية ، لا أزمة هؤلاء الأبطال ؟

إن أبطال القصص ليسوا إلا وجوهاً مختلفة للكاتب ، وبينهم وبينه مشاعر متبادلة ، وتطورهم أو انحدارهم في عالم الفن القصصي ذو صلة قوية بوجودهم في عالم الواقع أحياناً كثيرة ؛ كان نجيب

محفوظ يكتب في (المجلة الجديدة) ١٩٣٤-١٩٣٨ التي كان يصدرها سلامة موسى مقالة عن (الله) وصفت بأنها جريئة عدد يناير ١٩٣٦ ثم يقول في عدد مارس ١٩٣٦ بعد عرضه (الفكرة الله في الفلسفة) :

(والآن فلنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الذي تتركه في النفس جميع هذه الآراء من الأثر ؟ إن البراهين العقلية تمهد حسن ، ولفت قيم ، ولكنها لا تبلغ بالإنسان درجة الاعتقاد الحقيقي... وإنني أجد نفسي بعد الإطلاع عليها حيث كانت من الفرق والاضطراب) (١٤).

ويقول أحد كبار النقاد :

(تحضرني لنجيب محفوظ هنا مجموعته القصصية (دنيا الله) وفيها شجب أسلوبه التقليدي في القص ، وتخطى حدود المظهر من الوجود إلى مطلق الوجود ، ولقد أصطنع العبث أو اللامعقول أحياناً ولجاً إلى الرمز في أثناء مناقشته لقضتي الحياة والإيمان ، ونلحظ بسهولة أنه وهو يطلب منا أن نتجاهل الموت لعشوائيه (١٥) ينادي بعفوية العقيدة ، ولكنه يلح على الإحساس بالغربة والضياع.

أتراه فقد الإيمان ؟

لماذا يبدو وكأنه يرفض السعادة ويأبى أن يرسم طريق النجاة ؟
(نستطيع أن نقول إن نجيب محفوظ الذي سلم بمقدرات الدين في أكثر أعماله ، وقف إزاءها هذه المجموعة - أي دنيا الله - وقفه المواجه المتحدي ، أو وقفه المتسائل المشدوه ، ولنقل وقفه المحير أمام أخطر المشكلات) (١٦).

أما محدودية نماذج محفوظ في الموقع السياسي فأضرب لذلك مثلاً بقصته (ميرamar) والتي جعل فيها (زهرة) البطلة رمزاً للثورة المصرية (٢٣ يوليو) كما يرى كثير من دارسي هذه القصة.
وبقية الأبطال رمز لمواقف القوى القائمة في الساحة من الثورة ، (عامر وجدي) صحفي قديم شارك في كفاح الشعب ، (حسني علام الماجن، منصور باهي) التقدمي فكرأً الخ... هل هؤلاء فعلاً وغيرهم الذين في القصة هم وحدهم الذين كانت لهم آراء ورؤى وموقف من ثورة يوليو ؟
ألم تكن قوى أخرى وقفت مستندة إلى عقيدتها الإسلامية تحاور ثم تناوئ هذه الثورة (١٧).
وقصة (السراب) التي ولد فيها البطل من رحم الدراسات النفسية الغربية - لا من البيئة المصرية - وذلك ليكون للعرب نموذج كأوديب وهاملت والاخوة كارامازوف ، ولو كانت الحقائق الاجتماعية العربية لا تسعف الكاتب ، فهل يعقل أن يظل الطفل (كامل رؤية لاظ) طفلاً في تعليقه بأمه يكبر فيه كل شيء (إلا هو) (يستحمل معها فتضنه في الطست عاريًا وتجلس أمامه متجردة ، وكان لا يطيق فراقها ، وكانت هي كذلك لا تطيقه (أي الفراق) كانت قد حشدت كل أموالها من أجله بعد أن استرد زوجها الطفلين الآخرين وفضلاً عن هذا كان بين الطفل وأمه تشابه كبير ، فقد كان وجهه نسخة من وجهها ، وقد اعتاد أن ينام في سرير أمه حتى بلغ السادسة والعشرين من العمر ، وحين أنبه جده على ذلك ابتعاد سريراً آخر ولكنه وضعه في حجرة أمه) (١٨).
والكلمة الأخيرة في (المجيز) أي مانح الجائزة ، فمن المعلوم أن قمة أعمال محفوظ الأدبية كانت قد تحددت وظهرت قيمتها وتم نضجها قبل منح الجائزة بسنوات وما أضيف أخيراً لم يعط الكاتب وقصصه مزايا تتنزع الجائزة.

ولكن المزايا جاءت من خارج النص الأدبي ومن خلف سور القص ، من عالم السياسة عندما أضفى محفوظ على أدبه (طابع الإنسانية) وذلك (بضرورة العلاقة مع إسرائيل ، والصلح مع اليهود والتفاهم مع الصهيونية لعيش مشترك في فلسطين ومصر ولبنان).

في كلمة مختصرة للناقد جهاد فاضل في مجلة الحوادث ١٣/١١/١٩٨٧ بعنوان سقوط جائزة أم سقوط حضارة ؛ أُنقذ بعض ما جاء في هذه الكلمة الرائعة وإن كانت جديرة كلها أن تنقل : (إذا كان القانون يقول : الأصل براءة كل إنسان حتى يثبت العكس فالاصل في جائزة نobel أنها متهمة حتى يثبت العكس ، ذلك أن الواقع يثبت أن وراء منح هذه الجائزة الأدبية الهمامة ، مقاصد غير بريئة فهي لا تعطى كل سنة ومنذ سنوات بعيدة إلا لكاتب يهودي ، أو لكاتب منشق أو لموالى من موالي الغرب ، ولو كان كاتبا من الدرجة الثالثة ولو كان في العالم عشرات الكبار الأصالة والمستحقين).

في أدق تعريف لجائزة نobel ، يمكن القول أنها جائزة النظام العام الغربي الأدبي والفكري والسياسي ، وليس شيئاً آخر ، جائزة النظام العام للغرب لا جائزة الأدب والقيم الأدبية والإنسانية الرفيعة ، وتاريخها ناطق أنها لا تمنح إلا من زاوية خدمة أهداف الغرب العليا ، أداة من أدواته تماماً كالبنيان والمدفع والرادار وما إلى ذلك.

ويفضل (في المنهج) المنشق على أيديولوجية الشرق والمهور بالغرب وثقافته وحضارته). (وعندما يدعى هذا المنشق في الأسباب الموجبة لمنحه الجائزة ثائراً عربياً أو إسلامياً في حين أنه تأثر علىعروبة والإسلام).

(بدأت جائزة نobel عندما أراد عالم سويدي اسمه نobel - التكفير عن ذنب الحقد بالإنسانية هو اختراعه للديناميت ولكن اللجنة القائمة على الجائزة كثيراً ما تعطيها للتغيير لا للتغيير ، وبذلك تراعي الاختراع الأصلي أكثر مما تراعي رغبة التوبة عند مؤسسها.

[أجعل بينك وبين صنم الإفرنج بونا شاسعاً ..
فعهده وميثاقه لا يساويان حبة شعير ..
خذ النظرة من عين الفاروق ..
وضع القدم الجريء في العالم الجديد ..]

محمد إقبال

الهوامش :

- ١- بمناسبة حصول القاص نجيب محفوظ على جائزة نobel.
- ٢- دراسات في النقد الأدبي ، د.أحمد كمال زكي ، دار الأندرسون ص: ١٩١.
- ٣- قلعة أكسل ، إدمون ولسون ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص ١٠٥.
- ٤- البحث عن المعنى دراسات نقدية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص : ٨٦.
- ٥- رواه البخاري ، فتح البخاري ، ٣٣٦/٦ ؟ حديث رقم ٣٢٧٥.
- ٦- انظر عن الحاج الفتاوي لابن تيميه (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ٢٣٩،/١١

- ٧- انظر الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد.
- ٨- مجلة فصول ، مجلد ٢ ، العدد الأول أكتوبر ١٩٨١ العدد الخاص عن صلاح عبد الصبور ، ص ٣٧ ، من مقال د. عز الدين إسماعيل ، عاشق الحكمة حكيم العشق
- ٩- قصة قارون في مجلة البيان ، عدد ١٤ ، ص ١٥ ،
- ١٠- في الجهود الروائية ما بين سليم البستانى ونجيب محفوظ ، ص ١٠٥ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغى.
- ١١- الرمزية في أدب نجيب محفوظ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، فاطمة الزهراء محمد سعيد ص ١٤ ،
- ١٢- في الجهود الروائية ما بين سليم البستانى ونجيب محفوظ ، ص ١٤ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، د. عبد الرحمن ياغى.
- ١٣- المصدر السابق ، ص ٩٦ في ١١ و ٩٠،
- ١٤- المصدر السابق ، ص ٩٤ في ١٢ و ٩٠،
- ١٥- (عشوانية) تعكس رؤية الشاعر الجاهلي في الموت ، انظر معلقة زهير: رأيت المنايا خطط عشواء من تصب. ومعتقد المسلم أن الموت من- مقدار حكيم.
- ١٦- دراسات في النقد الأدبي ، د. أحمد كمال زكي ، دار الأندلس ، ص ١٩٢٠،
- ١٧- الرمزية في أدب نجيب محفوظ /٢٢٥ وما بعدها.
- ١٨- التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، دار المعرفة ١٩٦٣ ، ص ٢٦٠-٢٦١.

معالم من تاريخ الخلفاء الراشدين

- ٢ -

محمد بن صامل السلمي

٣- سعادة العدل والمساواة بمفهومها الإسلامي الصحيح :

وذلك أن التفاضل بين البشر قوامه الميزان الذي قرره الله في كتابه. قال تعالى :((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَنَاكُمْ)) [الحجرات/١٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربي على أجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتفوى»(١).

والأدلة الواقعية والتاريخية على سعادة هذا المبدأ في عصر الخلفاء الراشدين أكثر من أن تحصى ، فهذا الخليفة الأول أبي بكر الصديق يطلب في أول خطبة له من الرعية أن تقوم ما ترى فيه من خطأ أو اعوجاج(٢).

وهذا عمر بن الخطاب يتقاضى وهو خليفة مع أبي بن كعب الأنصاري عند قاضي المدينة في عهده زيد بن ثابت ، فيأتيه عمر وأبي ابن كعب إلى مجلس القضاء ، ويقول زيد لعمر: لو طلبتني يا أمير المؤمنين لأحضر عنك. فيرد عليه عمر : مقرراً قاعدة مهمة من قواعد التقاضي وهي قاعدة المساواة: في بيته يؤتى الحكم.

ثم يحاول زيد من باب الإكرام للخليفة أن يدنى مجلس عمر ، فيأتيه عمر إلا أن يجلس مع خصمه على قدم المساواة ويقول لزيد : هذا أول الجور منك.

مكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

وبعد أن يدل كل من الخصميين بحجته ، يحكم زيد باليمين على عمر ثم يطلب من أبي بن كعب أن يعفى أمير المؤمنين من اليمين لكن عمر أصر على تنفيذ ذلك ، فيختلف كما حكم القاضي ، وبعد أن استحق الأرض المتنازع عليها قضاء وهبها عمر لأبي بن كعب (٣).

ومرة جاء رجل من المسلمين فقال لعمر : أتق الله ، فقال أحد الحاضرين : أتقول ذلك لأمير المؤمنين ، فرد عليه عمر بقوله : دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم (٤) .

ومن مظاهر المساواة والعدل توزيع الفيء وأخmas الغنائم على كافة المسلمين فإن عمر رضي الله عنه لما دون ديوان العطاء جعل لكل مسلم حق في ذلك العطاء حتى المواليد ، فبمجرد ولادة طفل لأحد المسلمين يسجل أسمه في الديوان ويفرض له عطاوه وكان عمر يقول : لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاة حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه دون أن يسعى لطلبه^(٥) . ويقول أيضاً : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، ووالله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله^(٦) .

وقد واسى رضي الله عنه الناس بنفسه في عام الرمادة فامتنع عن أكل اللحم والسمن حتى توفر ذلك لعامة الناس ومضت أزمة المجائعة وجاءهم الفرج من الله.

يقول أنس رضي الله عنه : غلا الطعام بالمدينة فجعل عمر. رضي الله عنه يأكل الشعير وجعل بطنه يصوت فضرب بيده على بطنه وقال : والله مما هو إلا ما ترى حتى يوسع الله على المسلمين (٧). وعن طاووس قال: جدب على عهد عمر فما أكل سمناً ولا سمنينا حتى أخصب الناس (٨).

٤ - سيادة مبدأ الشورى قاعدة للتعامل بين الحاكم والمحكوم :

مبدأ الشورى من المبادئ الإسلامية الهامة التي توفر الأمن والطمأنينة للأفراد والاستقرار السياسي للدولة ، ويؤدي إلى إشاعة المحبة وبث روح التعاون والتناصح بين الحاكم والرعية ، وهو ضروري حتى لا ينفرد الحاكم بالأمر والرأي الذي قد لا يكون صواباً فإن رأي الجماعة خير من رأي الواحد لأنه يأتي بعد نظر ودراسة وتفكير في الأمر وعواقبه. ومن ثم تضمن الأمة أكبر قدر من إصابة الحق، قال ابن عطية: الشورى من قواعد الشريعة، وعراائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب (٩).

وقد قال تعالى مثنياً على المؤمنين ومعدداً بعض صفاتهم : ((وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)) [الشورى/٣٨].

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: كان الأنصار قبل قيام النبي صلى الله عليه وسلم إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه فمدحهم الله به. ونقل عن الحسن البصري أنه قال: إنهم لانقيادهم إلى الرأي في أمورهم متفقون لا يختلفون فمدحوا باتفاق كلامتهم (١٠).

وقال تعالى مخاطبًا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)) [آل عمران: ١٥٩].

آخر ابن أبي حاتم بسند حسن كما قال الحافظ في الفتح (١١) عن الحسن قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده .

فالشوري مشاركة في المسئولية وضمانة من الانحراف ولهذا بوب البخاري رحمه الله في صحيحه بهاتين الآيتين باباً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٢).

وهذا فقه عميق ونظر دقيق من البخاري رحمة الله لأهمية الشورى وكون العمل بها اعتصام بالكتاب والسنّة وبعد عن الانحراف والبدعة، مما أحوج دعاء الإسلام اليوم إلى تدبره وتفهمه لتسليم دعوتهم من القرارات العشوائية ، والاتجاهات الفردية. وقد وردت الآثار عن الأئمة في مدح الشورى وبيان فضائلها. قال الحسن البصري : ما تشاور قومٌ قطٌ بينهم إلّا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم ، وفي لفظ : إلّا عزّم الله لهم بالرشد أو بالذى ينفع (١٣).

وقال بعض العقلاة : ما أخطأت قط !! إذا حزبني أمر شاورت قومي فعملت الذي يرون فإن أصبت فهم المصيّبون وإن أخطأتم فهم المخطئون (١٤).

وقال البخاري: كان الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم "يستشّرون الأمّاء من أهل العلم في الأمور المباحة فإذا وضح الكتاب أو السنّة لم يتعدوه إلى غيره" (١٥).

وقال ابن العربي : الشورى ألفة للجماعة ، ومسار للعقل ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم إلّا هدوا (١٦).

ولقد كانت سيرة رسول صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين من بعده تطبيق واقعي لمبدأ الشورى ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأتيه الوحي من الله يسده يصفه أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٧).

وقد شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمور العامة كما في القتال يوم بدر ، وفي أسرى بدر وفي أحد والخندق والحدبية بل حتى في الأمور الخاصة ، كما في قصة حادثة الإفك. أما الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم جميعاً فقد وقعت منهم في خلافتهم أمور كثيرة توضح التزامهم بهذا المنهج الشوري منها : تشاورهم في اختيار الخليفة ، ومنها استشارة أبي بكر رضي الله عنه في قتال أهل الردة ، وقد أخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به قضى بينهم وإن علمه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنّة فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم واستشارهم. وإن عمر كان يفعل ذلك (١٨). وقد كان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً (١٩).

وقد شاور عمر الصحابة في الصحابة في إملاص المرأة (٢٠) ، وأيضاً في قتال الفرس (٢١) ، وفي دخول الشام لما وقع الطاعون بها (٢٢). وقد ترك عمر الخلافة من بعده شورى.

وشاور عثمان رضي الله عنه الصحابة أول خلافته فيما يفعل بعبيد الله بن عمر لما قتل الهرمزان ظناً منه أن له في قتل أبيه مدخلًا (٢٣).. وشاور الصحابة في جمع الناس على مصحف واحد ، قال علي بن أبي طالب : "ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملأ منا" (٢٤) ...

فهذه الواقع من تاريخ الخلفاء الراشدين توضح بما لا مزيد عليه التزامهم بمنهج الشورى في كافة الأعمال المحتاجة إلى ذلك مثل بعث الجيوش واختيار القادة وحكام الأقاليم والولايات والاجتهداد في الأحكام الشرعية التي لا نص فيها بخصوصها.

وقد كانت الشورى طريقاً ومنهجاً في اختيار الخلفاء الأربع للإمامية العظمى ، وإن اختلفت صور المشاورة ، وقد قال عمر رضي الله عنه: من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي يبايعه (٢٥). مما يدل على التزام الشورى في البيعة والخلافة.

٥- قيام الجهاد وال العلاقات الدولية في عهدهم على مقتضى الشرعية :

من المعلوم أن الدولة الإسلامية دولة متميزة في منهجها وتصورها وسياستها لأنها تأخذ أحكامها ونظمها من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ولذا فإن علاقتها مع غير المسلمين محكمة بتلك النصوص والأحكام.

ولقد أقام الخلفاء الراشدون علاقاتهم مع غير المسلمين على موجب تلك الأحكام. فالأرض إما.

١- دار إسلام : وتطبق فيها أحكام الشريعة على كافة المقيمين فيها سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ، لأن غير المسلم لابد أن يدفع الجزية للأحكام الإسلامية التي شرعها الله في حق أهل الذمة ، وللشروط التي وضعها الخلفاء ، وهى مفصلة في كتب الفقه ومنها أن يتلزموا بأداب المسلمين الظاهرة ولا يرفعوا صليبا ولا يشربوا خمرا ولا يؤذوا مسلما ولا يبنوا كنيسة ولا يدعوا أحدا إلى دينهم ولا يرفعوا دورهم فوق دور المسلمين ، ولا يحتفلوا بأعيادهم ظاهراً ولا ينشروا شيئاً من كتبهم بين المسلمين (٢٦).

ب - أو دار كفر ، وتنقسم هذه الدار إلى قسمين : دار صلح وعهد ، ودار حرب.

فأهل الصلح والوعيد يوفى لهم بعهدهم إذا حصل منهم الوفاء ، والوعيد والصلح لا يكون مستمراً إلى الأبد بل لابد من توقيته بأجل ، ومن العلماء من جعل أطول مدة للعهد والصلح عشر سنين أخذًا من أطول مدة صالح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين في صلح الحديبية (٢٧).

أما أهل الحرب فلا علاقة بينهم وبين المسلمين إلا السيف والقتال والأخذ بكل طريق ومرصد -إذا أقيمت عليهم الحجة وكان بالمسلمين قوة واستطاعة- لإرغامهم على الخضوع لله ولدينه ولزيكون الدين كله الله ، قال تعالى : ((فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُّوكُمْ هُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوهُمْ كُلَّ مَرْضَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَةَ فَخُلُوا سَبِيلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [التوبة: ٥].

وقد طبق الخلفاء الراشدون هذه الأحكام بأعلى وأتم ما يمكن التطبيق وكسرت في عهدهم أكبر دولتين في العالم في ذلك الزمن الدولة الفارسية والدولة الرومانية وأورث الله المسلمين أرضهم وأموالهم وأنفقت كلنورهما في سبيل الله وخضعت أراضيهما لحكم المسلمين وأصبحت دار إسلام ، ومن لم يسلم من أهل تلك المناطق طبقت عليه أحكام أهل الذمة وأخذت منه الجزية مقرونة بالذل والصغرى كما أمر الله تعالى : ((قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ بِيَنَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ وَهُمْ صَاغِرُونَ)) [التوبة: ٢٩]. كما ضربوا العشور على تجار غير المسلمين إذا مرروا بأرض الإسلام أما المسلمين فلا يؤخذ منهم عشور ولا ضرائب وإنما تؤخذ منهم الزكاة المفروضة، ووضع الخلفاء الراشدون الخراج على الأرض حسب التفصيات المقررة في مواطنها.

أما جزيرة العرب فقد أخرجوا منها اليهود والنصارى ولم يبق فيها إلا مسلماً تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيته في آخر حياته حيث قال : «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً» (٢٨) ، قوله: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب (٢٩).

٦- الحMas في نشر الإسلام:

وظيفة الدولة الإسلامية هي نشر الدين حتى يعبد الله وحده، ولهذا عرف ابن خلدون الخلافة بقوله: هي نيابة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا) (٣٠).

والدولة تنفذ هذه الوظيفة بالجهاد وفتح البلدان وبالدعوة والتعليم لأوامر الدين ونواهيه وكافة أحكامه الشرعية. فحركة الجهاد والفتح العسكري لا بد أن يصحبها ويتبعها الدعاة والمعلمون ليفقهوا الناس في دينهم وهذا التلازم بين الفتح العسكري والتعليم أمر ضروري لا بد منه لاستقرار الدعوة والدولة ولابد من ملاحظة التوازن المطلوب في هذا الجانب، فبقدر التوسع في الأرض يكون التوسع في الدعوة والتعليم حتى لا يختل ميزان التربية وتحدد الخلقة في الصف الإسلامي وتوسيع الفجوة بين الفاتحين وسكان الأراضي المفتولة مما يتسبب في حدوث ظواهر سلبية تؤثر في تماسك الصف الإسلامي ووحدته السياسية والفكرية.

وقد بذل الخلفاء الراشدون ما استطاعوا في سبيل حدوث هذا التوازن بين حركة التوسع الأفقي في فتح البلدان وبين التوسع الرأسي في تعليم الناس وتقديمهم في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولكن رغم وجود البذل والحماس في ميدان التقليم والتربية على تعاليم هذا الدين إلا أن الملاحظ أن التوسع في الأرض كان سريعاً وواسعاً فقد فتحت العراق وما وراءها والشام ومصر في سنوات قليلة معدودة فلم يكن في مقدرة الطاقة البشرية في ميدان التربية والتعليم استيعاب الأعداد الهائلة من سكان تلك المناطق وتعليمها كما لم يكن الزمن كافياً لرسوخ التعاليم الإسلامية في نفوس كثير منهم مما ساعد - مع غيره من العوامل - فيما بعد على وجود خلقة فكرية وظواهر سلبية دخلية على النهج الإسلامي مما سبب ظهور الفرق والأهواء المتشعبة.

وبعد هذه جملة من أهم المعالم البارزة في تاريخ الخلافة الرشيدة أردنا بالتنبيه إليها توجيه أنظار دعوة الإسلام إلى الاستفادة من هذا التاريخ المشرق والسير على منوالهم فإنهم القوم بهم يقتدى وبهديهم وسنتمهم يسلك ويتبع، والله الموفق والهادي.

الهوامش :

- ١- المستند للإمام أحمد بن حنبل ٤١١،/٥
- ٢- ابن هشام ، السيرة النبوية ٦٦١/٢ ، والطبرى ٣١٠،/٣
- ٣- أخرج القصة ابن شبه في أخبار المدينة ٧٥٥/٢ - ٧٥٦ بـإسناد صحيح من طريقتين عن الشعبي.
- ٤- ابن الجوزي : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،ص، ١٥٥
- ٥- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٩٩/٣ ، ومسند أحمد حديث رقم ٢٦٢ ، ط شاكر.
- ٦- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٩٩،/٣
- ٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٣١٣/٣ ، وابن شبه ، أخبار المدينة ٧٤٢/٢ ، ومنتخب كنز العمل ٣٩٧،/٥
- ٨- وابن شبه ، أخبار المدينة ٧٤٢،/٢
- ٩- المحرر الوجيز ٢٨٠،/٢
- ١٠- تفسير القرطبي ٣٦،/١٦
- ١١- فتح الباري ٣٤٠،/١٣
- ١٢- انظر صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ، باب(٢٨).
- ١٣- فتح الباري ٣٤٠/١٣ ، وقال ابن حجر: أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي حاتم بسند قوي.
- ١٤- تفسير القرطبي ٣٧،/١٦

- ١٥- الصحيح ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(٢٨).
 - ١٦- أحكام القرآن ١٨٦٨،/٤
 - ١٧- أشار إليه الترمذى في كتاب الجهاد من سنته بقول : ويروى عن أبي هريرة ، وقال الحافظ في الفتح ٣٤٠/١٣ ، رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
 - ١٩- ذكره الحافظ في الفتح ٣٤٢،/١٣
 - ٢٠- صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب(٢٨).
 - ٢١- صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب (٢٥).
 - ٢٢- فتح الباري ٣٤٢،/١٣
 - ٢٣- المصدر السابق.
 - ٢٤- ذكره الحافظ في فتح الباري ٣٤٢/١٣ ، وقال رواه ابن سعد وغيره بسند حسن.
 - ٢٥- ذكره الحافظ في فتح الباري ٣٤٢/١٣ ، وقال أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ، وسنه حسن.
 - ٢٦- رواه البخاري ، كتاب الحدود ، باب (٣١).
 - ٢٧- انظر ذلك مفصلاً في كتاب أحكام أهل الذمة للحافظ بن القيم.
 - ٢٨- حکی الطبری فی کتاب اختلاف الفقهاء (ص ١٤) الإجماع علی أن الصلح بين المسلمين والکفار لا یكون إلى الأبد.
 - ٢٩- رواه مسلم ١٣٨٨/٣ ، حديث رقم (١٧٦٧).
 - ٣٠- طرف من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة.
 - ٣١- المقدمة ١٩١.
-

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

السلام في أفغانستان

خطط ومكائد

حينما حصل الانقلاب الشيوعي في أفغانستان على محمد داود لم يدر بخلد الشيوعيين السوفيت، ولا عملائهم الشيوعيين الأفغان أن حرباً - كالحرب التي حدثت في أفغانستان - ستحدث ، ولم يقدروا أن الشيوعية ، بما لها من جبروت ، سوف يهزها شعب فقير وشبيه منعزل . ولذلك ، وبعد أن تأكد للسوفيت عقم محاولاتهم في إخضاع هذا الشعب ! وفي تسلط شرذمة من عملائهم لإذلاله وكسر شوكته ! لم يبق من الحكمة إلا أن يفكروا بطريق غير الطريق العسكري يحقون به ما عجزت الآلة العسكرية عنه ، وضمن هذا الإطار ينبغي أن تفهم التحركات الأخيرة للحكومة السوفيتية ، وتأتي الخطوة الأخيرة للسوفيت في سياق إطار عام من الانفراج الدولي بين القوى الكبرى ، ومن محاولات ترميم النظام الشيوعي في داخل الدول التي تتبناه ، بعد أن وصلت حالات جموده ونفور الناس منه إلى منتهاها . وكانت مبادرة غورباتشيف التي اقترحتها في خطابه في الأمم المتحدة في ١٢/٧ ١٩٨٨ تتضمن النقاط التالية :

وقف إطلاق النار ابتداءً من ١/١ ١٩٨٩م.

بقاء الأطراف المتحاربة في الأماكن التي تسيطر عليها.
وقف إمداد السلاح لأي من الأطراف منذ ١٩٨٩/١/١ م.
تأليف حكومة ذات قاعدة عريضة ، حسب قرار الأمم المتحدة.
إرسال قوة من الأمم المتحدة إلى كابل وبعض المراكز الاستراتيجية.
عقد مؤتمر بواسطة الأمم المتحدة في فترة قريبة حول حياد أفغانستان ونزع السلاح فيها.
تساهم روسيا في تضييد جراح الحرب مع الأمم المتحدة والدول الأخرى.
إنشاء قوة سلام دولية تكونها الأمم المتحدة من أجل إعادة بناء أفغانستان.
ومن محاولة البحث عن الأسباب والأهداف وراء هذه المبادرة، فإن الدارس يخرج بالنتائج التالية:
١ - حفظ ماء الوجه ، والتغطية على الهزيمة الفعلية، حيث إن السوفيت فشلوا في تحقيق ما يريدون ،
والآن يعرضون خطة انسحاب تحت مظلة الأمم المتحدة.
٢ - إن التركيز على حياد أفغانستان ونزع السلاح منها ، يعني أن السوفيت لا يطمئنون إلى الشعب
الأفغاني وبخاصة بعد معرفتهم بمدى جنایتهم عليه.
٣ - محاولة تمرير العناصر الشيوعية خلال حكومة ذات قاعدة عريضة تضمهم وتضم غيرهم ،
بعد فشلهم في إقامة حكومة شيوعية خالصة، وفي هذا اعتراف بالفشل من جهة، ومحاولة التزام
بأضعف الإيمان بعملائهم وعدم التخلّي عنهم.

نقاط الالقاء والافتراق في الموقف السوفييتي والأمريكي :

إن الموقف الأمريكي يتلخص بأن يجلو السوفيت عن أفغانستان وأن تسقط الحكومة الموالية
للسوفيت ، وأن تقوم حكومة لا أثر للنفوذ الشيوعي فيها ، ولا بأس أن تكون موالية لهم.
والأمريكان والروس متتفقون على عدم تشجيع قيام حكومة إسلامية ، فليس من مصلحتهم جميعاً أن
يكون وجه هذه الدولة إسلامياً واضحاً: شرعاً ، وتوجهاً ، وإذا كان بإمكان روسيا - باعتبارها قوة
كبرى مجاورة لأفغانستان - أن تضغط من أجل ذلك ؛ فإن أمريكا لها وسائلها أيضاً حيث يمكنها أن
تضغط إما بشكل مباشر عن طريق قطع إمدادات الأسلحة ، وإما بطريق غير مباشر عن طريق
الطلب من إحدى وكيلاتها في المنطقة للضغط على المجاهدين.

موقف باكستان وإيران :

لابد من الحديث عن موقف كل من باكستان وإيران باعتبارهما جارتين لأفغانستان، وموقفهما
يفهم على ضوء الانفراج بين السوفيت والأمريكان، ثم على ضوء التغيرات الأخيرة في كل من
الدولتين.

فباكستان بوتو غير باكستان ضياء الحق ، وب Otto - التي لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد اتفاقات
وتسمينات ، وتطابق في بعض وجهات النظر بينها وبين أمريكا - لا تستطيع إلا أن تنفذ ما تتطابق
فيه النظرتان ، وأهمه كبح المطالبة بحكم إسلامي صحيح في Afghanistan، وتلتقي في ذلك مع إيران ،
حيث إن وحدة الأصل الذي ينحدر منه حكام طهران وحكومة باكستان الآن يساعد على ذلك.
فإيران التي تقدم نفسها للمسلمين - دون حق - كناطق رسمي باسمهم في العالم تعلم جيداً أن قيام حكم
إسلامي للمجاهدين في Afghanistan يخالف في أصوله وفروعه أسلوبها ؛ أمر لا يسرها ، بل هو من
قبيل المضاربة والمنافسة التي لا ترضيها.

موقف المجاهدين :

إن موقف المجاهدين في هذه الفترة يتمتع ببعض النقاط القوية ، ومن ذلك أن السوفيت تجاوزوا الحكم الشيوعي في أفغانستان واتصلوا بهم مباشرة ، وكذلك اعتراف السوفيت بسيطرة المجاهدين على موقعهم ، وإظهارهم أنهم ماضون في استكمال، انسحابهم.

كما إن إصرارهم - أي المجاهدين - على مخاطبة روسيا بصوت واحد له دلالة طيبة، وقد لخص موقف المجاهدين قلب الدين حكمت يار في مؤتمر صحفي عقده في بيشاور بتاريخ ١٠ / ١٢ / ١٩٨٨ م نقطف منه بعض الفرات :

وقف إطلاق النار المقترح :

إن قضية وقف إطلاق النار في منظورنا قضية غير معقوله وغير عملية ما لم يتم استئصال الأسباب التي كانت، وراء نشوب القتال في أفغانستان بادئ ذي بدء والتي لا تزال قائمة، وفي مقدمتها عدم انسحاب القوات الروسية التام من أفغانستان ، وعدم سقوط النظام الشيوعي الألعوبة ، الملطخة يداه بدماء مئات الآلاف من الأبرياء من أبناء الشعب.، وإن أي اتفاق على غير هذا الأساس سيكون خداعاً للشعب.

نزع السلاح :

لن نرضى بتاتاً باقتراح نزع السلاح في أفغانستان تحت أي ظرف من الظروف ، حتى في المرحلة التي ستعقب النصر. إن دولة كأفغانستان المجاورة لدولة توسعية كروسيا لا يمكن لها المحافظة على استقلالها السياسي عن طريق الاحتفاظ بجيش محدود الحجم ، أو بشعب منزوع السلاح.

قوات حفظ السلام :

إننا نعتبر إرسال أي قوات أجنبية إلى أفغانستان تحت أي اسم كان أو أية ذريعة كانت اعتداء خارجياً ، وإننا سننجا به هذا الأمر بكل ما أوتينا من قوة. كما انه سيكون بمقدور أمتنا في مرحلة ما بعد الانسحاب الروسي وضع حلول كفيلة لتسوية مشاكلها وبدون الحاجة إلى عون من أي قوى خارجية. وبالجملة فإننا نكرر مرة أثرب أن الحل الوحيد للمشكلة الأفغانية هو الانسحاب غير المشروط للقوات الروسية ، وسقوط نظام نجيب الله ، وضمان حق تقرير المصير للشعب الأفغاني.

ومن جهة أخرى نقلت وكالة أنباء البنيان التابعة للمجاهدين في ١٢/٧/١٩٨٨م رفض الشيخ سيف وعدم اعتقاده بجدوى التفاوض مع الروس قبل إتمام انسحاب قواتهم بالكامل من Afghanistan.

المحاذير :

إن ما يجب أن يتتبه إليه المجاهدون هو أن روسيا التي فشلت في إملاء رغباتها عن طريق القتال قد تنتح عن طريق التفاوض والمناورات ، وروسيا ماضية في خططها الخبيثة فهي تحرص على شق المجاهدين ، وعلى مخاطبة كل فريق على حدة ، فقد اتصلت بالملك السابق وله أنصاره وعملاؤه ، وكذلك حرست ش أن تتصل بإيران ومن يلوذ بها من أنصارها وعملائها ، قبل أن تلتقي مع قيادة المجاهدين في باكستان.

وروسيا تحرص كل الحرص على اللعب على التناقضات ، وتكبير الصغير من الخلافات الفرعية ، كما أنها تحرص على أن ينضم إليها في عدائها وخصوصيتها للمجاهدين وما يمثلون؛ لا أمريكا وممثلوها، وإيران وبطائتها؛ بل أناس وفرقاء من المجاهدين أنفسهم ، فهل يمكنها قادة المجاهدين من ذلك ؟ نسأل الله أن يدفع البلاء.

بعد فراغنا من كتابة التعليق السابق عن آخر أخبار القضية الأفغانية ! وصلنا هذا التقرير الذي نضعه بنصه ولا يختلف في فحواه عما أشرنا إليه.

يحول حكام إيران اهتمامهم من حرب الخليج ، إلى مرحلة حاسمة من صراع القوى في أفغانستان ، ومن المرجح أن يشاركا في مباحثات الصفقة الأخيرة التي سيت mismatch عنها نشوء حكومة ائتلافية يستبعد الشيوعيون منها ، وقد يشكل ائتلاف كهذا أفضل حل للسوفيت - الذين باتوا على استعداد للتخلص من نظام نجيب الله - يحفظ لهم ماء الوجه ، ويرضي باكستان ، حسب معلومات نشرة (Foreign Report) (١) بهذه التحركات السرية الأخيرة.

ولكل من إيران وباكستان كما للاتحاد السوفيتي - مصلحة قوية في إقامة حكومة مستقرة ، وغير معادية في أفغانستان. وتشترك إيران مع أفغانستان في حدود دولية مفتوحة، وزعماء إيران الدينيون توافقون لرؤية رفاقهم الشيعة - الذين لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من الشعب الأفغاني السنى - يظفرون بنصيب أكبر من صفقة قادمة.

وتتخذ ثمانية أحزاب شيعية أفغانية من إيران قاعدة لها ، وتعد "حركة إسلامي" التي يقودها شيخ محسني - من قندهار - أكبر تلك الأحزاب ، وتريد إيران أن يلعب محسني دوراً رئيسياً في أي تسوية في أفغانستان.

وقد يكون لأربعة أحزاب صغيرة أخرى تحظى بدعم إيران وتنشط في الأماكن النائية دوراً في تسوية مقبلة ، وعلى أية حال فإن تلك الأحزاب تبدي منذ وقت طويل رغبتها في إنشاء قاعدة سياسية بدلًا من مقاتلة الروس ، كما أن إيران تتعدد منذ مدة إلى البروفسور برهان الدين رباني أهم زعماء الأفغان الذين يتذذلون من بيشاور في باكستان قاعدة لهم ، وكان رباني قد مكث في زيارته الأخيرة لطهران أطول من الفترة المقررة للزيارة ، كما أنه استقبل من قبل الرئيس على خامنئي استقبال رؤساء الدول ، ويترأس رباني حزب "الجمعية الإسلامية" وهي أكبر الجماعات في إقليم هرات والإقليم الشمالي ، كما أن لديها أكبر عدد من المقاتلين في ساحات القتال ، وسيكون رباني في أي ائتلاف يخلف نجيب الله.

وقالت مصادرنا إن رباني - خلال زيارته لطهران - وعد الشيعة الأفغان باحترام مطالبهم الهدافة إلى الحصول على تمثيل عادل ومشاركة في السلطة في ائتلاف مقبل (٢) ، كما علمت مصادرنا أن "فورنتسوف" نائب وزير الخارجية السوفيتي وسفير بلاده لدى أفغانستان يشدد على ائتلاف بين الأحزاب السنوية والشيعية ، ويريد الروس ضم الحزب الشيوعي إلى هذا الائتلاف ، ولكنهم يعلمون جيداً برفض المجاهدين لذلك ، ولذلك فإن فورنتسوف ينأى بنفسه عن نجيب الله.

وإن رئيسة وزراء باكستان الجديدة والضعيفة يفهمها التوصل إلى حل يشجع عودة ملايين اللاجئين الأفغان إلى بلادهم في أسرع وقت ، الأمر الذي لن يكون إلا بوجود حكومة ائتلافية مستقرة وغير شيعية في كابل.

ولكن يا ترى من سيكون في ذلك الائتلاف ؟ والجواب : يبدو أن أغلب الجماعات السنوية والشيعية ستندفع إلى ذلك باستثناء الحزب الإسلامي الذي يرأسه قلب الدين حكمت يار - والذي يعد من قبل منتقديه متطرفاً وقاسياً ومتعطشاً إلى السلطة (٣) .

والقادة العسكريون الذين يدعمون المجاهدين يرون في وجوده حجر عثرة يمكن أن يخرب هذه الفرصة السانحة للتقاء هذه الجماعات مع بعضها.

وقد التقى المبعوث الروسي فورنتسوف وأخرون بالملك المخلوع ظاهر شاه الذي يعيش في روما منذ خلعه عام ١٩٧٣ والذى يمكن أن يلعب دوراً من حيث إمكانية اجتماع هذه الجماعات عليه باعتباره شخصية غير سياسية (٤) ، ولكنه من الضعف والجبن بحيث لا يمكنه اقتناص الفرصة.

إن ائتلافاً يستبعد الشيوعية وحكمت يار ، ويضم غالبية الأطراف السنوية والشيعية ، قد يكون أفضل فرصة لأفغانستان لتجنب ما هو أسوأ ، المتمثل بتقسيم البلاد - بمزيد من سفك الدماء - إلى إقطاعيات متناحرة.

الهوامش :

- ١ - نشرة خاصة تصدر عن مؤسسة (الإيكونومست) .
- ٢ - هذا رأى أصحاب النشرة ، وتفتنا بالأخ رباني أنه سيجيب ظن هؤلاء المتخرصين .
- ٣ - هذا دين أعداء الإسلام ، فكل من بدت منه صلابة في دينه ، وعدم قبول الدينية يصفونه بأبشع الصفات .
- ٤ - هكذا يقدمون الملك السابق على أنه شخصية غير سياسية! والحق أن له أنصاره ، وله من يعمل له و يؤيد أفكاره ، بالإضافة إلى دعم القوى الغربية له .

أخبار الجهاد الأفغاني

حصار المجاهدين يصيب كابل بالشلل

إبراهيم الديهيمان

ذكرت صحيفة التايمز اللندنية بتاريخ ١٩٨٨/١٢/٨ إن إمكانية بقاء النظام الشيوعي في كابل في مرحلة ما بعد إكمال الانسحاب السوفييتي مقرور بمقدرتها على مقاومة الحصار الاقتصادي الفعال الذي يفرضه المجاهدون على العاصمة كابل.

وتتضخج قبضة المجاهدين على العاصمة كابل ذات الطقس الشديد البرودة في أوضاع صورها حيث تقف قوافل من السيارات التي قد تزيد كل قافلة منها على ٢٠٠ سيارة ، أمام محطات الوقود. كذلك يتحدث سكان كابل عن نقص شديد في المواد الغذائية الأساسية كالخبر ، وعن ارتفاع ملحوظ في أسعار السكر والشاي والخضروات. ويرجع السبب الرئيسي وراء تلك الأزمات إلى الحصار الذي يضربه المجاهدون على الطرق الحيوية.

وجاء في العدد التاسع والأربعين من مجلة الجهاد الصادرة عن المجاهدين مازالوا يتقدمون في فتح الواقع ، وقد تمكروا أخيراً من فتح (طورخم) الممر الشهير والشريان الحيوي الواسع بين أفغانستان وباكستان ، واستولوا على نقطة التقىش المهمة في هذا الممر وقد هرب إليهم (١٨٥) جندي أفغاني بعد هذا الفتح. ويحاول المجاهدون الآن مهاجمة منطقة (سمرخيل) المهمة ، وأما في المناطق الأخرى فالوضع جيد بشكل عام بسبب ضعف الحكومة وانسحاب القوات الروسية.

قبل أسبوعين معدودة من الآن خرج مئات من الطلاب التركستانيين المسلمين (الأويغور) (١) في جامعة مدينة أورومجي في مظاهره في شوارع المدينة وهم يلوحون بلافقات ويطلقون شعارات ضد خصمهم التقليدي : المستوطنين الصينيين وذلك احتجاجاً على إعلان ظهر في أحد أروقة الجامعة يدعى إلى اتخاذ رجال الأويغور عبيداً ونسائهم جواري.

وقالت سيدة تركمانية : "إننا في منظور الصينيين دائمًا قوم غير متحضررين ولا نعرف النظافة" وعلق مسؤول صيني على الأحداث فقال : "إن هناك نفراً قليلاً من يتآمر بالخفاء ضد وحدة الوطن الأم ، وأضاف. إن أولئك هم خونة ومن حثالة الناس ولا يمكن التسامح معهم" ، وكانت آخر جولات المصادمات بين المسلمين والصينيين قد حدثت قبل سبع سنوات عندما خرج المسلمون في انتفاضة عارمة في مدينة كاشغر (٢) مستخدمين أسلحة نارية استولوا عليها من إحدى ترسانات السلاح الحكومية ، وقد استدعاها جيش التحرير الشعبي لسحق الانتفاضة مما أدى إلى سقوط المئات من القتلى في صفوف المسلمين. وتختى الحكومة الصينية من أن تكون أحداث بهذه امتداداً طبيعياً لما يحدث في الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفييتي المجاور ، هذا بالإضافة إلى المشاعر الأخوية التي يكنها مسلمو تركستان - الذين يستقلون بلغتهم ودينهم وتاريخهم - لمسلمي الاتحاد السوفييتي مما يجعل أمر ولائهم السياسي لبكين مدار شكواه لدى الحكومة الصينية.

وكان الشيوعيون الصينيون قد قضوا على آخر محاولة تحريرية قام بها مسلمو تركستان في عام ١٩٣٢ واستمرت خمسة أعوام اضطر الصينيون حينها للاستعانة بالألاف من القوات الروسية التي مكنته من سحق التمرد. ثم تعرضت البلاد إلى محن أخرى إبان ما يسمى بالثورة الثقافية التي قادها (ماوتسى تونغ) هدمت وأغلقت خلالها المئات من المساجد ، في حين قشت المزارع التعاونية على أسباب عيش الرعاعة الفروعين والتجار والمزارعين.

هذا وقد عممت الحكومة الصينية إلى توطين أعداد كبيرة من الصينيين في إقليم تركستان وذلك لموازنة كفة السكان هناك. ففي الوقت الذي لم تكن فيه نسبة الصينيين تتجاوز الـ ١٠ % من مجموع السكان البالغ أربعة ملايين في عام ١٩٤٩م باتوااليوم يشكلون ما يربو على ٤٦ % من مجموع سكان الإقليم البالغ (١٤) مليون.

وبعد ما يزيد على نصف قرن من الحكم الشيعي مازال التركستانيون يعيشون في عزلة اجتماعية شبه تامة عن الصينيين ، بل إنه من النادر تحدثهم باللغة الصينية ، أما الطلاب الجامعيون فيرفضون بشدة سياسة الدولة الهدافلة إلى مزج الطلاب المنحدرين من عرقيات مختلفة في الوحدات السكنية الجامعية. ويجد مسلمو تركستان هذا النوع من الانفصالية العرقية وذلك لأنه الأسلوب الوحيد الذي يتمكنون من خلاله المحافظة على هويتهم الإسلامية ، في حين أن أكثر ما يثير حفيظتهم هو ما يلحظونه من عدم مساواة في توزيع فرص العمل لاسيما في المراكز الرسمية المهمة، حيث يشغل الصينيون معظم الوظائف الإدارية العليا والحساسة.

عن الاندبندنت ١٩٨٨/١٠/٢٠

تقع فطاني في شبه جزيرة الملايو جنوب شرق آسيا ، وهى إحدى ولايات مملكة فطاني... وتقع بين خطى عرض 5 - 8 شمال خط الاستواء ، أما الأمطار فإنها مستمرة طوال العام.. وتغطى الخضرة معظم أراضيها... وأنهارها تجري طوال العام.

وتعتبر منطقة فطاني غنية من الناحية الزراعية والمعدنية... ولكن مع الأسف إن هذا الغنى يذهب إلى مملكة تايلاند... وأهم منتجاتها الأرز حيث تحتل تايلاند بما فيها فطاني المركز السادس في العالم في إنتاج الأرز (١).

وصول الإسلام إلى فطاني :

لا يُعرف بالضبط متى وصل الإسلام فطاني ولكن بدايته كانت عن طريق التجار العرب الذين وصلواها من الهند وسومطرة إضافة إلى التجار العرب الذين حملوا معهم الإسلام إذ أسسوا أول محطة لهم في كانتون في الصين حين كان طريق سفرهم إلى الصين عن طريق فطاني.

وتروي الأخبار الفطانية وكتب التاريخ أنه في حوالي عام ٧٥١ هـ أسلم ملك فطاني وتبعه أفراد أسرته ووزرائه ثم الشعب.

أما عدد السكان فآخر إحصائية في منطقة فطاني تذكر أنهم ثلاثة ملايين نسمة نسبة المسلمين فيها ٨٠% ، أما اللغة الرسمية فهي اللغة الملاوية وتكتب بالأحرف العربية وفيها كثير من الكلمات العربية ، بل وصل الأمر ببعض الفطانيين إلى اعتقادهم أن الدعاء لا يصح إلا بالعربية بل يستجاب ، أما تايلاند فتصر على أن اللغة الرسمية هي اللغة التايلاندية ، ويصر الفطانيون على التمسك بلغتهم وهي جزء من كيانهم رغم محاربة تايلاند لها.

أقسام فطاني :

تنقسم فطاني إلى ٤ مقاطعات هي.

فطاني : أصغر المقاطعات وعاصمتها فطاني وهى أكبر مرفأ بحري وجوي في البلاد.

بنغازا (ناريتواس) : تقع على ساحل بحر الصين الجنوبي ومركزها بنغازا.

ساتول(ساتون) : تشمل ولاية ساتول وجزءاً من مقاطعة سونكلا ، وتتبعها عدة جزر ، وهى أكبر المقاطعات وأوسعها.

جالا(يلا) : منطقة داخلية.

الاستعمار لفطاني :

استولى التايلانديون على فطاني عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م حيث هاجموها عدة مرات بعد فشل عدة محاولات وأخيراً استولوا عليها وقسموها إلى ولايات لإضعافها "فرق تسد" وبدأت ثورات الفطانيين تترى.

أمثلة لمحاربة تايلاند للإسلام في فطاني :

سنلخص بعض ما تفعله مملكة تايلاند لمحاربة الإسلام في فطاني :

- 1 - وافق وزير التعليم التايلاندي على لبس الطالبات الحجاب في المدارس إلا أن البوذيين حرضوا الطلاب والطالبات البوذيين على القيام بمظاهرات واحتجاجات سحب الوزير على أثرها قراره وقامت مظاهرات فعلاً مما اضطرهم إلى إغلاق الكلية في محافظة (جالا) وكان ذلك ومع الأسف بتحريض من المسؤولين البوذيين.

وتبلغ نسبة المسلمين في ولاية (جالا) ٨٥٪ أكبر نسبة في ولايات فطاني الأربع ، أما النظام المتبعة الآن فهو منع الزي الإسلامي في المدارس والجامعات ، ومن تلبس اللباس الإسلامي مهده بالطرد من الجامعة.

ومن وسائل طمس الإسلام في فطاني :

- ١ - تعقيم المسلمات.
 - ٢ - تصوير ورسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في المدارس.
 - ٣ - وضع تماثيل بودا في المدارس.
 - ٤ - تغيير الأسماء الإسلامية إلى بودية.
 - ٥ - إقامة المعابد وسط قرى المسلمين.
 - ٦ - اغتصاب أراضي المسلمين وتوزيعها على البوذيين.
- ومع كل هذا الضغط مازال المسلمون متمسكين بدينهم والله الحمد ، ولن ينسى التاريخ مأساة شهر ذي الحجة عام ١٣٩٥ هـ الموافق ١٩٧٥ م عندما قامت السلطات التایلاندية بذبح ٥ مسلمين في سابيوري الأمر الذي تسبب في المظاهرات في جامع فطاني ، واستمرت قرابة شهرين استشهاد فيها ١٦ مسلماً من المدرسين والطلبة.
- ٢ - وفي ١٩٨٧/١٢/٢٦ قام تایلانديون من رجال الأمن وعددهم ٣٠ بهجوم على إحدى قرى فطاني ، وقاموا بجمع الفلاحين المسلمين وضربوهم وعذبوا أربعة منهم ثم رموهم بالرصاص ودفنوهم في مقبرة واحدة بدون صلاة.
 - ٣ - يتعرض المسلمون الآن في فطاني لأنواع من المأساة والفتنة من إبادة وقتل جماعي، إضافة إلى إبادة الوجود الثقافي والاجتماعي لهم.
 - ٤ - تقوم السلطات هناك بنشر الفساد وترويج المخدرات بين السكان وكذلك سرقة الماشي والممتلكات وهناك الأعراض.
- ### **انطباعات عامة عن فطاني :**

لقد وفقي الله سبحانه وتعالى لزيارة هذا البلد (لطاني) الذي يقع في وسط دولة كافرة لا تأبه بالإسلام ولا تعترف به ، وهي تایلاند ، وقد شاهدت بنفسي ما يعانيه أبناء فطاني المسلمين من مضائقات كثيرة من قبل الحكومة لا لسبب إلا أنهم قالوا ربنا الله ، ولكن وما يثليج الصدر هذه الصحوة العارمة التي بدأت في صفوف الشباب والشابات والإقبال الكبير على هذا الدين القويم من الجميع إلا أن تایلاند تخوفت من ذلك ، وأصبحت تصدر الإحصائيات بين كل فترة وأخرى وتبيّن بهذه الإحصائيات زوراً أن الغالبية من أبناء فطاني ليسوا مسلمين ، بل وصل الأمر بحكومة تایلاند أن بدأت تهجر أعداداً كبيرة من البوذيين من مناطقهم في تایلاند وتسكنهم في مناطق المسلمين في فطاني بالقوة لتبقى النسبة في صالحهم.

وتقوم المدرسة الرحمانية في فطاني بجهود كبيرة لخدمة المسلمين في هذه البلاد ، ويشرف عليها أخوة نذروا أنفسهم لخدمة هذا الدين ، وهم والله الحمد مؤهلون من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتشرف على تدريس الشباب والفتيات وكذلك الكبار.

وكانت زيارتنا لهذا البلد في رمضان حيث وجدنا سنة الاعتكاف في معظم مساجدهم بل منهم التجار الذين تركوا تجارتهم واعتكفوا بالمساجد ، إلا أن الخطر هناك يكمن في نشاط بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام.

وإننا نهيب بال المسلمين ممن يهتمون بشؤون الأقليات الإسلامية أن يتداركوا إخوانهم هناك بتقديم الكتب المبسطة والمترجمة والتي تساعدهم على الفهم الصحيح للإسلام.

الهوامش :

١- فطاني ، محمود شاكر.

الحضارة المعاصرة .. الوجه الآخر

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً

[... والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة ، إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة .]

ابن تيمية

قصة تتكرر في مدن الغرب وربما في لندن أكثر من غيرها نقلها بقلم كاتبتها (آن دي كوري) لتصور لنا بعض ما يعاني الغرب عندما ابتعد كثيراً عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. إن مثل قصة الشابة لورين بانس التي اغتيلت ب بشاعة هذا الأسبوع أصبح - ويلا للعار - أمراً مأثوراً، فلم تكن تمضي بضع دقائق على مغادرتها للقطار حتى سقطت ميتة بفعل فاعل هاجمها بعنف وخفقاً.

بماذا عسانا نواجه بناتنا وأبنائنا يا ترى؟! إن أقل ما يشعر به الرجل عندما يعتدي على امرأة تخصه ، في هذه الأيام هو الشعور بالعجز التام والنقمـة والذنب.

إننا في رأيي بحاجة ماسة إلى أمرين اثنين :

أولاً : لابد من تغيير جذري في مواقفنا فليس علينا فقط أن نعرف بوجود أماكن وأوقات خطيرة - هذا فضلاً عن البشر - بل علينا - أعني سكان لندن - أن نقر بحقيقة (مرة) وهي أننا نعيش في غابة يسودها قانون الغاب ، ويأكل القوي فيها الضعيف.

ولهذا فعلينا مثلسائر مخلوقات الغابة أن نتأقلم مع هذا الواقع ... بالطريقة التي تتکيف بها الحيوانات الضعيفة مع الأخطار المحدقة بها من قبل الحيوانات الأكثر قوـة - هذه الحيوانات التي تدفعها شرستها إلى مطاردة فريستها والتربص بها والانقضاض دون نجاح مراراً عديدة ، حتى تفوز في آخر المطاف بالضربة القاضية.

ثانياً : لابد أن نسعى لإحياء الهم بيقاظ الشعور الفطري لدى الرجل بضرورة حماية المرأة. في وقت مضى كانت التقاليـد تجر الرجل على أن يصطحب المرأة - ذاهبة أو آية - بل كان المضيـفون عند نهاية الحفل لا يتركـون امرأة منفردة تغادر بيـتهم دون رفيـق ، إذ كانوا يحرصـون على إيصالـها إلى بيـتها إما بصحـبـتهم أو على الأقل في سيـارة أجرـة فإن تعذر ذلك فإنـهم يصرـون على بـقـائـها عندـهم تـبـيت لـيلـتها بـخـفارـتهم. كانت القـاعدة هي أن حـماـية المرأة واجـب وـمـسـؤـلـيـة كلـ رـجـلـ.

إنه اعتراف بالـحـقـيقـةـ البيـولـوجـيـةـ البـسيـطـةـ وهـىـ أنـ النـسـاءـ أـضـعـفـ بـنـيـةـ منـ الرـجـالـ ، ثمـ إنـ الذـكـورـ منـ الـأـوـلـادـ إـذـ تـرـبـواـ عـلـىـ تـفـهـمـ ضـعـفـ أـخـواتـهـمـ وـهـشـاشـةـ مـعـدـنـهـنـ فـسـوـفـ يـتـكـونـ لـدـيـهـمـ شـعـورـ فـطـرـيـ بالـمـسـؤـلـيـةـ تـجـاهـ تـأـمـينـ كـلـ النـسـاءـ.

التعليق :

في هذه الغصة وأمثالها حقيقة مرة بالنسبة لدعاة ما يسمى بتحرر المرأة ، ولكنها حقيقة معروفة ومحسوبة في نظر الإسلام الذي أكرم المرأة، واعتبرها مخلوقاً مكرماً يحتاج ابتداءً إلى رعاية وصيانة ، فشرع من أجل ذلك التشريعات التي تحمى المرأة وتصون كرامتها.

وهاهي كاتبة غير مسلمة تعترف وبملء فيها بـ (ضعف المرأة الجسمى وهشاشة معندها) وليس في هذا تنقص منها ، كما أن الإسلام في نظرته للمرأة لا ينتقص من قدرها، و لا يتنكر لدورها ، وإن المفهوم المعوج للحرية الذي تفهمه النساء العربيات ومن يقلدهن سينزع الحصانة التي كانت تتمتع فيها المرأة في المجتمع ، وإذا نزعت الحصانة فمن الصعب أن تعود في ظل الظروف الاجتماعية الدينية والأخلاقية التي نزعت فيها.

وليس غير الشرع الإسلامي ضمانة للمرأة تجد في ظلها كرامتها ، وتحقق من خلالها ذاتها ((إن هدى الله هو الهدى))

رقم قياسي جديد في جرائم القتل

وصل عدد الذين سقطوا ضحية عمليات الإجرام في نيويورك مع نهاية عام ١٩٨٨ م إلى (١٨٤٩) قتيلاً، بما في ذلك ثمانية قتلى عشية أعياد الميلاد ، وستة آخرون في اليوم التالي بينما سجل أعلى رقم قياسي في عام ١٩٨١ وكان (١٨٤١) قتيلاً.

وبهذا يكون عام ١٩٨٨ م هو الأعنف الذي تمر به مدينة نيويورك من حيث الجرائم ، ويعزو المسؤولون في المدينة هذا الارتفاع في عمليات القتل إلى تقشى تعاطي المخدرات بأنواعها. أي بمعدل خمسة قتلى في اليوم الواحد

عبدة الشيطان في ألمانيا

لا يعلم رجال الشرطة حتى الآن ما الذي حدث في مصنع المنسوجات المهجور في بلدة "كتويغ" في ألمانيا الغربية قبل ليال من عيد "هلوين" وأسفر عن موت المغني "غوردون بروير" ذي الستة عشر ربيعاً ، ويقول المحامون إن زميل "غوردون" في المدرسة "أوي" وتربه قد اعترف بقتله وأدخل مستشفى الأمراض النفسية للعلاج ، حيث أفاد "أوي" أن "غوردون" أخذه للمصنع المهجور ليりه " شيئاً ما" ! رافضاً الإفصاح عنه للشرطة ، أما زملاؤه في المدرسة فقد قالوا للمحققين إن المصنع المهجور كان المكان الذي اتخذوه ليعبدوا فيه الشيطان !!

وتعتبر ألمانيا الغربية منذ فترة مركزاً رئيسياً لانتشار المفاهيم الدينية المتنوعة ، فقد أظهر إحصاء رسمي لطلبة الثانوية في "ميونيج" في بداية هذه السنة أن عشرين في المائة من الطلبة قد اشتراكوا في جلسات روحية أو جلسات لتحضير الأرواح ، إلا أن الديانة الجديدة التي تكتسح البلاد كلها مخيفة فعلاً.. إنها عبادة الشيطان !!

حيث اعترف أربعة في المائة من طلبة الثانوية في الإحصاء المذكور بالاشتراك ولو لمرة واحدة على الأقل في شعائر القدس الشرير ، ويقول الراهب البروتستنطي "فريدرريك ويلهالم هاك" مؤلف عدة كتب عن هذه الديانات السرية. إن عدد الذين يدينون بشكل نشط بهذه الديانة الشيطانية في ألمانيا الغربية وحدها يبلغ عشرة آلاف شخص ، إلا أنه يصر على أن الشباب يتخذ طقوس هذه الديانة كوسيلة رخيصة للتسلية وتمضية الوقت ، حيث إنها لا تكلف الشباب شيئاً بالمقارنة بوسائل التسلية الأخرى ، مثل الذهاب للسينما (سعر التذكرة ستة دولارات) أو حضور حفلة رقص ديسكو

(سعر التذكرة عشرون دولارا). ولكن مسؤولين آخرين لا يشاركون القس نظرته حيث يؤكّد أحد المسؤولين عن مؤسسة اجتماعية هدفها متابعة مثل هذه النشاطات : إن هذه النشاطات منتشرة وقوية بشكل أكبر بكثير من مجرد كونها وسيلة لتمضية الوقت لدى الشباب ، بل إن نشاطها يصل إلى الأطفال في المدارس ، حيث طلب المساعدة منهم مدرسون في مدارس ابتدائية بخصوص أطفال "دون سن العاشرة ... " كما استشيرت المؤسسة في حالات تتعلق بأعضاء نشطين ومحمسين لهذه الديانة "الشيطانية" بقوة ولا تتجاوز أعمارهم ثلاثة عشرة سنة.

ويتحدث أخصائيو المصحات النفسية عن قصص مخيفة عن تأثير هذه النشاطات والجلسات السرية على نفسيات الشباب الذي يخضع للإيحاءات. ويقول أحدهم أنه عالج ثلاثة مراهقين من هوس يتعلق بالأرواح ، كان آخرهم فتاة عمرها خمس عشرة سنة كانت مقتنة أنها حامل من الشيطان وأنه سيكون لها الحمل أو الجنين دور خاص في المستقبل... كانت مقتنة بذلك رغم أنها في الحقيقة لم تكن حاملا على الإطلاق ، ويضيف بأنه قدتمكن من علاجها إلا أنه غير متفائل لأنها عادت إلى نفس زملائها السابقين ، ويخشى أن يؤدي اشتراكها مرة أخرى في مثل تلك الجلسات السرية إلى عودة المرض النفسي إليها.

وقد أصبحت هذه النشاطات تثير الإزعاج لدرجة أن أولياء الأمور في إحدى القرى حاولوا منذ أسبوعين منع أحد عروض الألعاب السحرية في إحدى المدارس الابتدائية ، وعندما لم يستطيعوا منع العرض منعوا أطفالهم وعدهم أربعين من حضوره في المدرسة خوفاً أن يكون حضور أطفالهم لعرض مثل هذا هو الخطوة الأولى على الطريق لينضموا إلى الديانة "الشيطانية" في المستقبل.

**مجلة نيوز ويك - عدد ٥١
١٩٨٨/١٢/١٩**

قديم جيد أرحام تعاطف

للشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

طالما نعينا على المسلمين خصوصاً ، وعلى الشرقيين عموماً ، هذا التقاطع الذي شنت شملهم ، وفرق جامعتهم ، وصيرهم لقمة سائغة للمستعمرين ؛ وطالما شرحا للMuslimين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم ، وأقمنا لهم الأدلة ، وضرربنا لهم الأمثل ، وسقنا المثلا ، وجلوينا العبر ، وكانت نذر الشر تتواتي ، فيمارون بها ، وصيحات الضحايا منهم تتعالى ، فيصمون عنها والزمن سائر ، والفالك دائئر ، وهم في غفلة ساهون.

دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزيل ، وهي جامعة الإسلام ، إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخول ، وهي روحانية الشرق ، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة ، والوطنيات المحدودة ، التي هي منبع شقائهم ، ومبعدة بلائهم ، وبيننا لهم أنها دسيسة استعمارية، زينها لهم سماسراً الغرب ، وعلماؤه وأدلاؤه ؛ وغايتها منها التفريق ، ثم التمزيق ، ثم القضم ، ثم الهضم ، وأن الاستعمار بهذه الدسيسة وأشباهها - يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم؛ ففطرة الله تلهم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره؛ ودين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى

إيثار الجار والإحسان إليه ؛ وهو بهذا يعم التناصر ويقيم في الأرض شرعة التعاون ، فما من جار إلا له جار ، والناس كلهم متاجرون، جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية ، فجوار المدينة للمدينة ، فجوار الوطن للوطن؛ فإذا أخذوا بهذه الشريعة وأقاموا حدودها عم التناصر والتعاون ، وسدت المنافذ على المغirين ، وعلى المفسدين في الأرض ولكن الاستعمار - بهذه الدسيسة - بدل شرعة الله بشرعية الشيطان ، فهو يقول لك : أقصر اهتمامك على دارك ، ولا تلتفت إلى دار جارك ، ويُوسوس للجار بمثل ذلك حتى إذا أطاعاه خرب الدارين ، واستعبد الجارين.

ومازال الاستعمار يروض المسلمين والشرقيين على قبول هذه الدسيسة، ثم على استحسانها ، ثم على الأخذ بها ، حتى تقطعوا في الأرض أمماً ليس منهم الصالحون ... ثم تقطعت الأمم جماعات ، وكلما آنس منهم مخيلة انتباه غرهم بما يغير به الشيطان: بشجرة الخلد وملك لا يبلى، وجرهم بما ينجر به الصبيان : ألفاظ فارغة وأسماء وألقاب ، وعروش من أعواد، في سيل واد؛ حتى ابتلع ممالكم، واحتجن أموالهم، وتركهم مثلاً في الآخرين ؛ واعتبر ذلك بهذا الاستعمار الجاثم في شمال أفريقيا(١) ، وعد بذاكرتك إلى مبدأ أمره ، وكيف أكل العنقد حبة حبة ، متمهلاً مطاولاً ، يرقب الخلس ، ويدرع الغلس ؛ وكيف أطعنته غلتنا الكراع ، أطعنته في الذراع ، حتى استوعب الجسد كله أكلاً ؛ وكيف كان يعتدي على الجزء ، فيقابله الكل بالهزء ؛ اعتبر ذلك ترأننا ما أخذنا بعثة ، ولا سلبنا هذا الملك الضخم فلتة ؛ وإنما هي آثار تلك الدسيسة فيينا ، استبدلنا التناحر بالتناصر ، والتعاوي بالتعاون؛ ثم نزلنا دركة ، فأصبحنا وإن الأخ ليقتل أخيه في سبيل قاتلهم معاً، ولو اتعظ الأخير مما بالأول لما مد الاستعمار هذا المد ، ولما بلغ فيينا إلى هذا الحد.

الهوامش :

١. نشرت هذه الكلمة عام ١٩٥١ م.

الصفحة الأخيرة مزيداً من هذه الخطوات

بدأ بعض المسلمين في بريطانيا يشعرون بالخطر الناجم عن ترك فلذات أكبادهم يتعلمون في المدارس الإنكليزية ، ويتربون على أيدي معلمين ومعلمات أتقنوا فن استهواه الطفل الصغير والتغريب به بأساليب هادئة ماكرة، فالدروس أكثرها قصص وألعاب ورياضة وبرامج تلفاز ، والطفل المسكين يردد ما تقوله له المعلمة ، فيتعلم أغاني أعياد الميلاد و (بابا نويل). وفي هذه الأجواء فإن الآباء والأمهات المسلمين - وأكثرهم غير متعلمين - يشعرون بالفرح والبهجة لأن ولدهم أصبح يتكلم الإنكليزية كأهلها ، وفي العادة فإن الخيرين منهم لا يتتبهون للخطر إلا بعد فوات الأوان ، وبعضهم يحاول ترميم ما أفسده بإرسال ولده إلى المسجد في عطلة نهاية الأسبوع ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وبقيت المشكلة : كيف ننشئ مدارس خاصة لأولاد المسلمين ، تزودهم بقدر كافٍ من المعلومات والمعارف الإسلامية التي تحظى وتعصّمهم من الذوبان، وهو تحدي يواجه المسلمين ، خاصة وأن من ينفق الأموال في وجوه الخير يجب إنفاقها في المساجد ، وهو في غفلة عن المدارس وخطورتها وأهميتها لإنقاذ الأجيال الشابة ، وبدأت تظهر بدايات تدعوا إلى التفاؤل، وإن كانت

صغرى الحجم ككل بداية ، فظهرت مدرسة الهجرة في برمجها ، ومدرسة زكرياء الثانوية للبنات في مدينة (باتلي) وقد سبق الأخ يوسف إسلام بإنشاء المدرسة الابتدائية الإسلامية في لندن . ولعل هذا يكون أول الغيث في تشييد المدارس ، وتشمير المسلمين عن ساعد الجد من أجل فهم واقع العصر ، والنظر إلى -المستقبل ، لا إلى الساعة الراهنة فقط.

تمت بحمد الله
